لُعْبَة السَّفَر

الطبعة الأولى

١٤٤٤هـ - ٢٠٢٣م

اسم الرواية: لُعْبَة السَّفَر

اسم المؤلف: طارق فراج

التدقيق اللغوي: د.ياسر عوض

تصميم الغلاف: محمد مجاهد

الإخراج الداخلي: خالد محمود

رقم الإيداع: ٢٣٩٠٩ / ٢٠٢٢

الترقيم الدولي: ٩٧٨-٩٧٧-٨٦٣٧٢-٣-٦



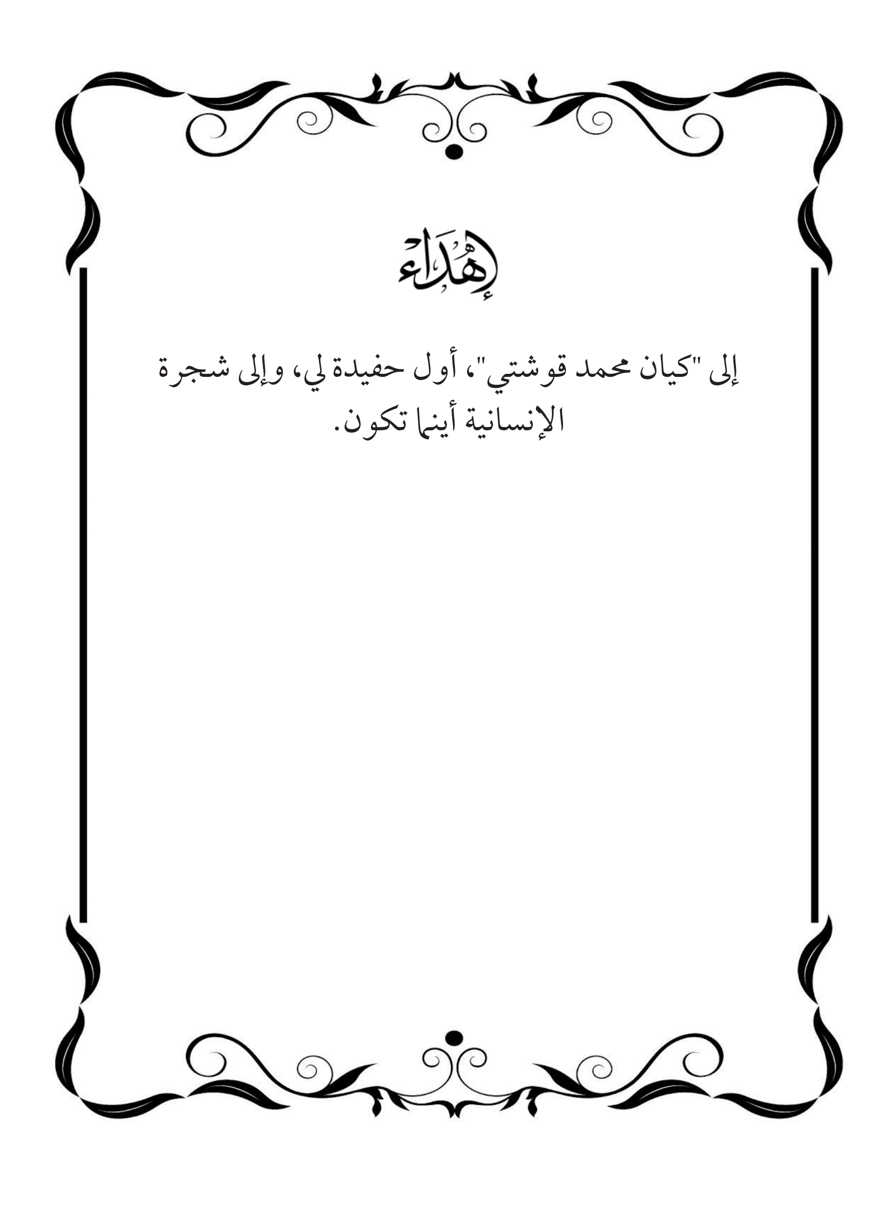

ش- حسن خطاب - قسم يوسف بيك - الزقازيق - الشرقية


01020439639


massar.pub1@gmail.com

لُعْبَة السَّفَر





إهداء

إلى "كيان محمد قوشتي"، أول حفيدة لي، وإلى شجرة الإنسانية أينما تكون.

تصدير

كثيرة هي الدروب

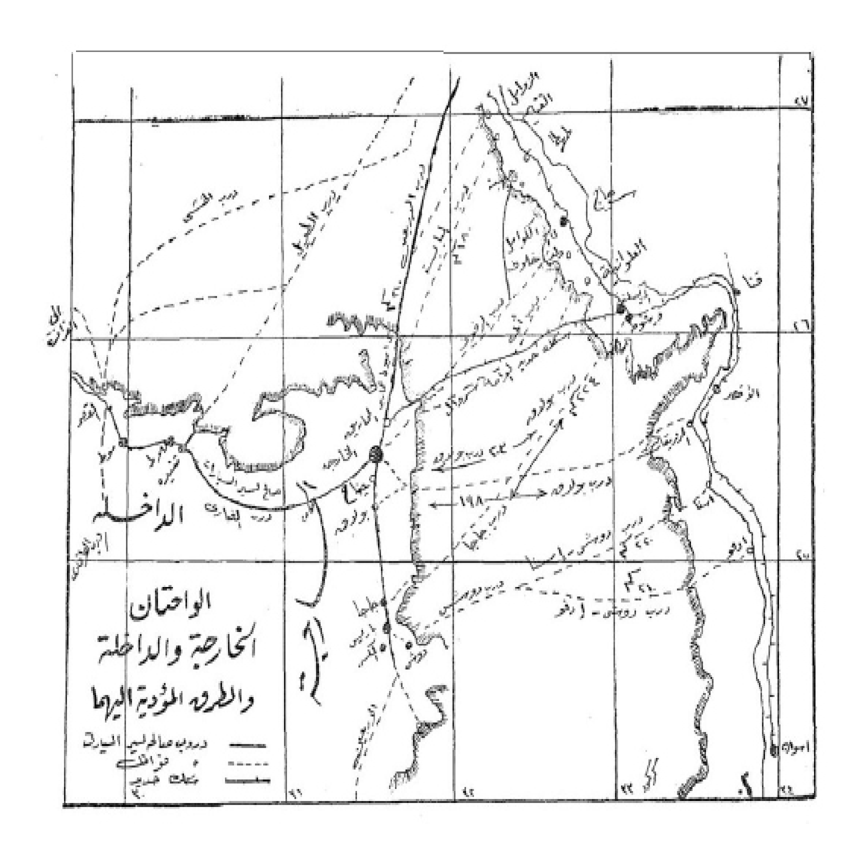
التي انزلقت من تحت أقدامنا

وتركتنا للفراغ

فتحنا صدورنا للريح وقلنا: لا بأس،

ما دام هناك سقفٌ

يحرس الأيام القادمة.



طريق السفر من واحتي "الداخلة" و"الخارجة" إلى وادي النيل عبر الصحراء الغربية

مغادرة ووصول

-١-

كان عليَّ أن أخرج

من ذلك الباب نفسه

الذي دخلت منه ذات يوم

...،

أذكرُ أني حين دخلتُ،

لم أجد إلا الفراغ

وحين استدرت راجعاً،

لم أجد الباب!!

دفع "قاسم" بوابة البيت بقدمه اليُمنى فانفرجت نصف انفراجة؛ سمحت له بالدخول بما يحمله من حطب للموقد. في نهاية القاعة الطويلة، لَمَحَ "رشيدة" مُنكفئة على مواعينٍ الماء وثوبها البيتيّ الخفيف ملمومًا بين فخذيها. دقق النظر؛ ساقاها ناصعان ومؤخرتها الرائعة تملأ المشهد الذي لم ينْسَهُ يومًا. تزورهم على فترات متقاربة لتساعد أمَه؛

تغسل وتكنس وتملأ أواني الماء وتأخذ ما قسمه الله لها من طعام.

كان ذلك الوضع المثير جديدًا على ناظريه؛ فخذان شهيان ينتهيان إلى مؤخرة ذات فلقتين واضحتين ومحددتين بذلك الأخدود الطوليّ العجيب. وقف جامدًا في مكانه حتى اعتدلَت واكتشفَت حضوره وخمنَت ما آل إليه حاله لمرآها هكذا فابتسمت وأطلقت سراح الثوب المعذَّب لينسدل في ليونة لأسفل. في ذلك اليوم، قالت نظراتها كلامًا كثيرًا لم يفهم منه شيئًا، حتى تزوجها. ظلت ابتسامتها عالقة في المسافة الصغيرة الفاصلة ما بين أجفانه لتمنحه، كلما تذكرها، فهمًا جديدًا يضافُ إلى فهمه الذي تعسَّر، تقريبًا، وتباطأ في النمو لسنوات. لم يفكر يومًا في الزواج برشيدة، لأنه كان يعرف مدى ولعها بمغازلة الفتيان لها، ومدى تساهلها حين يلقي أحدهم، في طريقها، جملةً تصف روعة أنوثتها.

❋❋❋

كثيرًا ما نشبت المنازعات بين "زينب" وزوجها "عبد المنعم الجِنّ"، الذي كان قد وصل به قطار العُمر إلى محطاته الأخيرة، عندما فارت رشيدة وتدوَّر جسدها مزهوًا بثماره الفاتنة. لم يكن الجن جادًا في مغازلاته المتكررة لرشيدة، لكن زينب كانت تغتاظ وكان يحب أن يغيظها.

تمرّ رشيدة أمام الجَنّ، وهو جالس على المصطبة أمام بيته، ملقية إليه

بابتسامة ونظرة، عندئذ يبدأ في ارتجال الكلمات التي يمليها عليه الموقف كأن يدعوها إلى الشُرب من ماء القُلّة البارد قائلًا: "تعال اروي عطشك يا جميل، الميّ دي ترُدّ الروح، اللي يشرب منها مرَّة يرجع لنا ألف مرّة". ورشيدة تسمعه فتضحك وتتلوى في مشيتها وثوبها الخفيف يبرز تضاريس الجسد الفتيّ، يتنهَّد ويقول "يا بلح يا طايب مَشْيَك عجايب"، بينما تسمعه زينب فتنهره وتعيبه وتزعق من الداخل "امشي معدول يا معووجة"، والبنت تسمعها فتسرع خطاها وتختفي عن الأنظار.

لم يكن عبد المنعم الجن يخشى الموت وكان يهزأ منه حتى ظن الناس أنه لن يموت. لكنه مات في وضح النهار أثر عضة فأر جبليّ قضم إصبعه الخنصر بينما كان نائماً، في فناء بيته الخلفيّ. قام فزعاً، يصرخ من الألم. أصابته الحُمى حينئذ، ومات بعدها بأيام. قالت زينب؛ إن زوجها كان نهماً؛ يعشق الأكل ولا يستثني شيئًا. في يوم عضة الفأر تلك، اغترف غرفة بيده من وعاء الزُبد الفخاريّ وألقاها في جوفه دفعة واحدة، ثم اتجه نحو الفناء مباشرة لينام في ظل شجرة الجميز، بينما كانت أصابعه تبث رائحة الزبد وتنشرها في الأنحاء جاذبة إليه ذلك الكائن الصغير ليقضم إصبعه.

❊❊❊

كان قاسم يسمع الصغار والكبار، في طفولته، ينعتونه بصفات لم ينسها أبدًا: "معتوه، أهطل، مجنون"، ولم يعد يتذكَّر لماذا لم يدافع، وقتئذٍ

عن نفسه. ربما لأنه شكي إلى أبيه سوء معاملة الرفاق، لكن "الحدَّاد" لم يدفع عنه الأذى، بل أرغى وأزبد وقال كلامًا قاسيًا لم يعلق منه في ذهنه سوى إنه أكثر شبهًا بخاله (المجنون) الذي كان يضرب في الأرض هائمًا على وجهه، وأينما حط عليه الليل نام. كان خاله يغيب بالسبعة أيام، لا يعرف عنه أحد شيئًا، ثم يتفاجأ به أهل بيته نائمًا في حجرته، أو جالسًا على المصطبة أمام البيت كأن شيئًا لم يكن. يحادثهم كأنما لم يبرح مكانه. خرج ذات يوم ولم يعد. تتبع بعض أهل الواحة آثار خطوات دابته حتى انتهت بهم جنوبًا، داخلة "وادي النوم". عندها، خافوا من دخول الوادي وعادوا يبعثرون الحكايات التي اختلقوها عن الوحوش الضارية التي تحرس مدخل الوادي.

غادر قاسم ابن "عبد الحكم الحدَّاد" الواحة في فجر اليوم الذي جاء فيه "جُنيْد البَرّي" إليها. حط جُنَيْد على أطراف الواحة بمحض الصدفة عندما تراءت له من بعيد كجنّة "عدن". جاء هائمًا على وجهه، يضرب في أرض الله بعد أن أضحى وحيدًا، بينما غادرها قاسم مسافرًا إلى عاصمة البلاد بحثا عن لقمة العيش. التقيا مرتين، بترتيب الأقدار، لمدة لا تزيد عن الوقت الذي يتقابل فيه قطاران؛ أحدهما انتهى به الطريق إلى محطة الوصول، والآخر يهم بمغادرة المكان منطلقًا نحو المجهول.

حدث ذلك في تلك السنوات التي كان فيها اتساع الصحراء ـــ رغم مجاهلها ـــ أكثر دفئًا من حجرةٍ ضيقةٍ مُغلَقة النوافذ. كانت البُقعة

الخضراء الملتصقة بقعر المنخفض العميق، وبيوتها القليلة المتمركزة فوق الربوة التي تتوسطها، هي كل ما يعرفه أهل هذه الواحة عن العالم الذي ينتهي ـــ بحسب رؤيتهم ـــ عند بداية الكثبان الرملية المسنونة والمقوَّسة فيما وراء ذلك الحزام الأخضر، ومن ثَم تبدأ مساحة شاسعة من الأراضي القاحلة: ريحٌ ورمالٌ سافية، بقايا أشجار متيبسة منكَّسة الرؤوس، كثبان رملية تتمدد مُسددة أذيالها الطويلة نحو العمران، مثل رسائل غامضة قادمة من كواكب مجهولة.

تقع البيوت فوق هضبة صغيرة، ذات جوانب لطيفة الانحدار. أنتَ إذا رأيتها من بعيد، رأيتَ طبقاً ضخماً مقلوبًا تبدو المساكن فوق سطحه وعلى حوافه كأنها بُنيت فوق مصاطب متدرجة الارتفاع. يمتد الزقاق الرئيسي ـــ طويلًا ومتعرجًا ـــ من الشرق لينتهي عند أوطأ نقطة في الغرب. تتفرع منه أزقة صغيرة تتلوى هنا وهناك. تؤطر حواف الهضبة وما حولها حقولٌ خضراء ونباتات بريَّة وحشائش تتناثر في عشوائيَّة وفوضى. إن بقعة كهذه، تُعد هامشاً منسياً ما عرف الراحة يومًا وما أوى إلى فراش. لقد انغرست أقدام كثيرة هنا، وما أن تحركت للأمام حتى كنست الريح آثارها.

-٢-

قَدِمَ جُنَيْد من واحة "عَنْقِيش"، وقرر أن يحط رحاله عند أول بقعة خضراء يراها، بعد أن طرق أماكن أخرى ولم يلق ترحيبًا. لم يكن يبغي بيتًا يؤويه، بل كانت أقصى آماله أن يُسمح له ببناء "خُصّ" صغير من جريد النخل يمكن أن يستظل به على هامش أية منطقة عامرة. لم يحمل يومًا هَمّ الليل؛ فالسماء سقفًا كبيرًا يحتوي الجميع.

بعد أن قطع المدق الصحراوي الواقع شرق الواحة، استقبلته شجرة الدوم بقوامها الملفوف وأوراقها الخضراء العريضة. أوقف حماره الأسود ثم تلفَّت متأملًا المكان حوله. لم يكن يُسمع في ذلك البراح سوى رجع صدى لنباح كلابٍ يأتي من بعيد.

خرج قاسم قبل انبلاجة الفجر، تاركًا زوجته "رشيدة" في البيت الذي أعده له أبوه. حمل أمتعته القليلة وزاده وزوَّاده فوق ظهره، وسار مخترقًا الأزقة ومتأملًا البيوت الطينية الواطئة حتى وصل أول المدق الشرقيّ وتراءت له قمم الربوات وأسنة الكثبان الرملية كالأشباح والعفاريت التي يُحكى أنها تخرج هائمة في الشوارع بعد غروب شمس كل يوم.

فرَّت الطيور من أعشاشها فجأة، عندما اقترب من شجرة الدوم،

وسمع صوت ارتطام أجنحتها بأفرع الأشجار. اقشعرّ جلده وأحس بثقلٍ في قدميه وأصابته رجفة، فتسمر في مكانه قبل أن يلمح الشبحين المتصبين تحت الشجرة. استجمع رباطة جأشه، مستعيذا بالله من الشياطين والعفاريت ثم زعق: "هُوووي، مَن هناك؟". وجاءه الرد ممطوطًا: " أنا غريـيـيـــب يا أهل الكرم". أخذ قاسم نفسًا عميقًا عندما اكتشف أن الشبح، الذي يقف على بُعد خطواتٍ منه، آدميّ وحماره معه. كان قاسم قد قرر ألا يفتح حوارًا مع الغريب، لكن الفضول دفعه أن يسأل الرجل عن اسمه، وعرف أنه "جُنيد البريّ" فلم يرتح له، وحاول قدر الإمكان اختصار إجاباته ردا على أسئلة جنيد الكثيرة عن الواحة وأهلها. بالطبع، يعرف حكاية "البري" الذي قُبض عليه وسُجن، واستنتج أن الابن الذي يقف أمامه الآن، يبحث عن مأوى.

-٣-

برغم تلك المعزوفة التي انطلقت من الحظائر وأفنية البيوت إلا أنه لم يستيقظ. أعلَنَ نهيق الحمير المختلط بثغاء الماعز وقأقأة الدواجن وصياح الديكة، ونباح الكلاب أن نهارًا جديدًا من عمر هذا الكون قد وُلد للتو. لاح ضوء الشمس شاحبًا في الأفق، بينما امتنع "غانم" و"مسلَّم" عن الثرثرة، وشدا مِقْوديّ حماريهما للخلف، وثبَّتا نظريهما على تلك الكومة الداكنة تحت شجرة الدوم، وعلى ذلك الحمار الأسود المربوط إلى جوارها. أدركا أن ثمة شخص ينام تحت ذلك الغطاء، ومن ثم قررا أن يعودا أدراجهما ليخبرا الشيخ "وَنُّوس" بالأمر.

***

كان "جُنَيْد البَرِّيّ" شابا قويًا، يستطيع، بلا مبالغة، أن يرفع جوال سُكَّر يزن مئة كيلوجرام من الأرض، ويضعه على حماره الأسود دون مساعدة من أحد. فتى طويل، بمنكبين عريضين، وذراعين قويتين تنفر عروقهما وتتشابك مثل حبلٍ من الليف مُلقى على الأرض كيفما اتفق. قَدِمَ جنيد إلى الواحة فجأة، بعد أن انتشر خبر موت أبيه في سجن المدينة البعيدة حيث ثبتت عليه حادثة سرقة لم تكن الأولى من نوعها في تاريخه كلصّ غير معروف، لكنها كانتا المرة الأولى التي يُضبَطُ فيها متلبسًا.

عندما علم أهل هذه الواحة، وأهل الواحات الأخرى المتناثرة في الصحراء أن البريّ قد مات في السجن، قبل أن يوفّي مدة عقوبته، ترحّموا عليه وقالوا كلامًا يليق بجلال هذه المواقف، لكنهم أضمروا فرحًا عظيمًا في مكنون صدورهم، كان ينعكس، بين الحين والآخر، في أحداقهم.

عند مجيء جُنيد، كان قد مرَّ على زواج "قاسم" بـ "رشيدة" ما يقرب من ثلاثة أشهر. تزوجها مرغمًا؛ لأن والده "عبد الحكم الحَدَّاد" أراد ذلك، وما استطاع أن يتفوّه ولو بكلمة، بل ظل مُقيدًا طيلة اليوم في العمل الذي طالما كرهه ولم يجاهر بكرهه؛ جمع الحطب، مطرقة الحدادة، خبث الحديد، لهيب النار، وأوامر أبيه التي لا تنفد.

عبد الحكم "الحدَّاد" رجل فظ، لا تعرف البسمة لوجهه طريقًا وما استطاع أحد أن يقبض عليه متلبسًا بالقهقهة ولو مرة واحدة. قدماه الحافيتان على الدوام، تزينهما شقوق غائرة كأودية جف ماؤها واحتلتها الرمال... بعد أيام من وصول جنيد إلى الواحة، قابله الحداد مصادفة في أحد الأزقة وتعرَّف عليه على الفور ـــــ حيث كانت حرفته تضطره للتنقّل بين الواحات لبَيْع الفؤوس والمناجل وعَلَّاقات الحديد والمسامير الحدَّادي ـــــ فقد التقاه أكثر من مرة في واحة "عنقيش"، والواحات المجاورة لها.

عندما التقيا في الزقاق، صدمه الحدَّاد بكلام قاسٍ قائلًا إنه يعرفه

جيدًا ويعرف أباه الذي سرق ونال ما يستحق. بلع جُنيد، على مضض، كلام الحداد وظل صامتًا، بينما الأخير يتوعده بأنه سوف يُخرجه من هذه الواحة بفضيحةٍ إن هو فكّر في المضيّ على خُطى أبيه. لم يشك جنيد، ولو للحظة، أن أباه مات مظلومًا؛ ظلمته الحياة، وظلمه قهر البشر.

ها قد أمسى وحيدًا، وما من شك في أنه ـــ فيما سيأتي من أيام ـــ سيتجول مُفردًا، وعليه أن يختار الطريق بكامل إرادته. لكن جنيد لم يختر، وقتئذ، طُرُقًا، بل قادته فطرته نحو التجوال. فكل ما يعرفه، أنه يتحتم عليه أن يتجوَّل، يطرق الممرات ويختبر الدروب، ولتضعه الحياة والناس أينما يريدون، فلن يهتم. ما من سبب مهم يدعوه للاهتمام بما هو قادم، فلم يعد هناك - بعد موت أبيه - ما يخشى عليه.

لِمَ الخوف، وقد تحوَّلت الحياة التي كان يأملها إلى كومةٍ من الأحجار!

لُعبة الأحفاد

-١-

تسلق الولد "أمين" ـــــ حفيد الشيخ "ونّوس"، شيخ الواحة ـــــ شجرة التوت الملاصقة لبيت "عَشّومَة العايق"، ولحق به صاحبه "سالم"، واتفقا على أن يلعبا. سالم هو حفيد "عشم الله" وهو اسم عشّومة الحقيقيّ المدوَّن في الأوراق الرسميَّة. أما كُنيته "العايق" التي التصقت به، فقد أحرزها وهو ما يزال شابًا، ذلك لأنه كان شديد الاهتمام بمظهره، فلا يخرج من البيت إلا بوجه مغسول وشعر مصفف مفروق في جانب الرأس ومدهون بزيوت عطرية، وجلباب نظيف يظهر من جيبه العلويّ منديل قماشي مطويّ بعناية. أما علامته المميزة فكانت ذلك المشط الأسود الذي يُطل برأسه من خلف المنديل.

جلس أمين على فرع الشجرة المائل ناحية النافذة، قابضًا بكلتا يديه على الفرع الذي يواجهه، ثم بدأ يقلد صوت دويّ السيارة. جلس سالم على الفرع المجاور منتظراً أن يبدأ السائق في التحرك. في الأعلى، كانا يجلسان بارتياح. يصنعان مسرحًا كونيّا، تمرح فيه أحلام السفر، فتقفز المخيّلة الصغيرة فيما وراء الصحراء والكثبان والصخور لتسعد بعالم مثاليّ شاسع ينعم بالوفرة ورغد العيش حيث لا فقر ولا رمال يمكن

أن تلتهم البيوت والزروع. كانا لا يرتفعان إلا أمتار عدة عن أرض الزقاق، إلا أن قوة خفيّة تدفعهما ليصَدِّقا أنهما يجوبان ـــــــ مع كل تحرك متخيل، بسيارة متخيلة ـــــــ أقطار الدنيا وآفاقها الرحيبة.

في حين يمرِّر الجوع حلق الأيام، تُصبح الأشجار التي تنبت في الخيال أبهى ألف مرة وأجمل من تلك التي تحتضنها الشمس وتكسو أوراقها طبقات الغبار. لا يترك الأطفال أحلامهم لحظة واحدة، وليس لديهم أدنى استعداد للتنازل عن حلم واحد. إن لهوهم هو الحياة الحقيقية الوحيدة، وما خلا ذلك فهو محض أوهام. يولد الناس جميعًا بأحلام واسعة وكلما كبروا اصطدمت رؤوسهم بصخور الواقع، فتراهم يتنازلون تدريجيًا عن الحلم تلو الحلم، حتى إذا ما انفرطت مسبحة الأحلام جميعها ولم يعد في قبضتهم سوى حلم الحياة، تشبثوا بها، أملا في حياة آمنة لا ينغصها شيء.

أصدر السائق صفيراً بفمه علامة على الانطلاق، فأشار له سالم ـــــــ الجالس على الفرع المقابل يسأله عن وجهته، فأجاب السائق الصغير إنه مسافر إلى آخر الدنيا. آخر الدنيا! يا لطموحك الكبير، وهل تعرف في مثل سنك هذه أن للدنيا آخر؟ أدخل سالم يده في جيب جلبابه وتصنَّع أنه يخرج النقود، ثم ناولها لأمين الذي تصنَّع أنه يعُدّ العملات ويطمئن على تمام المبلغ المطلوب كي يقلَّه إلى آخر الدنيا.

بدأ السائق يهز بيديه فرع الشجرة مُقلِّدًا دويّ السيارة عندما

جاء الولد "محمود"، بعد لحظات. وقف في ظل الشجرة الممتد، معطيًا ظهره لأشعة الشمس التي اخترقت الفرجات الصغيرة بين الأغصان وانطبعت بأشكال مختلفة على الأرض. رفع رأسه لأعلى فعرف أنهما يلعبان "لعبة السفر". لوَّح بيده للمسافريْن، وهو يصيح:" يا عم أمين خدني معك"، فأومأ له العم أمين إيجابًا مشيرًا بيده أن اركب بسرعة فنحن على عجلة من أمرنا. تسلق محمود بسرعة وجلس وراء سالم في حين شرع الراكبان والسائق في هَزِّ أفرع الشجرة، وتقليد صوت دوي السيارة وبوقها المزعج.

لم يكن الولد سالم على علم بأن جدَّهُ "عَشّومَة" داخل البيت وأنه صبر عليهم كثيرًا فلما فاض به الكيل خرج يهدد ويتوعد. استكانوا للحظات، ثم تحركوا بهدوءٍ وتحدثوا بصوتٍ خافت، وما لبثت أصواتهم ـــــ بعد أن انغمسوا في عالمهم ـــــ أن ارتفعت شيئًا فشيئا وعشومة في الداخل يحاول أن يكظم غيظه وآملًا أن يطرق النوم أبواب جفنيه. منذ أن تقدمت به السن وهو ينام في الضحى فقد ألَمَّ به أرق ليليّ لا يحتمل وصار عصبيًّا يثور لأتفه الأسباب.

بعد قليل، خرجت "سُمية"، حفيدة عشّومَة وأخت سالم، بعد أن جذبها الضجيج. وفي الجهة المقابلة لشجرة التوت، فُتحت بوابة بيت "عبد الحي" حارس الحقول، لتخرج حفيدته "ريحانة". جمعتا علب صفيح فارغة، وأوانٍ فخارية مُهَشَّمَة، وجلستا لتعلبا أيضًا تحت الشجرة. ثم

جاءت "كُحْلَة" أخت الولد أمين مهرولة. ظهرت عند فم الزقاق تحاول أن تتفادى سربًا من الإوز يسدّ عليها الطريق. التصقت بالجدار قدر ما استطاعت، بينما كانت الطيور تنقِّر الأرض وترفرف بأجنحتها فيتطاير الغبار في وجه الطفلة ويرتفع ذيل ثوبها قليلًا. شهقت وارتبكت وسقطت دميتها القماشية من يدها. انحنت لتُخفض ذيل الثوب على ساقيها وهي تتلفَّت خشية أن يراها أحد! ولما اطمأنت لهدوء المكان وخلوّه من المتلصصين المحتملين، التقطت دميتها وانطلقت قاصدة الشجرة.

في الأعلى، كان الأولاد مشغولين بالسفر، في حين جلست كُحلة في الظل قابضة على دُمْيَتها القماشية المحشوَّة بالقش، تلصقها بصدرها وتربت على ظهرها كي تكفّ عن البُكاء. لكُحْلَة وجه صغير مدور، وعينان واسعتان رائعتان. عندما وصلت، كانت الفتاتان تخططان في الأرض حجرات بيتهما المتخيَّل. رفعت كُحْلَة وجهها عاليا، وعندما علمت أن السيارة في طريقها إلى البلد البعيد صاحت: "هاااووو، خويا، نفسي أسافر معك". لكن أخيها أجابها غاضبًا بأنها (بِت) بنت ويتحتم عليها أن تلعب مع البنات. لم تُلِحّ الطفلة الصغيرة في السؤال، وانضمت مباشرة إلى بنات جنسها. تقدمت ناحية المصطبة الممتدة أسفل النافذة. وضعت طفلتها (الدمية) في لطف وهي تُبَسْمِل، ثم انضمت إلى سُمية وريحانة.

ما أرحب هذا العالم في نظر أطفال لم تعركهم الحياة، لم يصدمهم الواقع بعد وليس بهم حاجة للتمرن على لبس الأقنعة أو تلوين الكلام وفق ما يقتضي الموقف. صفحات نفوسهم بيضاء، وقلوبهم نقية مثل نقاء النسيم في صباح باكر.

تابع الأطفال اللعب أمام بيت عشومة، مثيرين ضوضاء تكفي لكي توقظ الواحة بأكملها. لم يحتمل الجد كل ذلك العبث، خاصة وأنه حذرهم من قبل. خرج حانقاً متضجراً وقد علا صوته. هددهم هذه المرة بعصًا في يده، وأمرهم أن يختفوا عن ناظريه قبل أن تلسعهم عصاه التي كان يهزها في الهواء في عصبية شديدة وهو يقول: "غوروا، العبوا فوق الغَرْد، ولّا في أي داهية غير هوني"، وقبل أن يكمل جملته كانت الفتيات قد أصبحن في آخر الزقاق، ونزل الأطفال من فوق الشجرة في خفة قرود مدربين ليلحقوا بهن. كان الجد يقف حافيًا، معترضا الباب بلباس النوم؛ قميص أبيض، وسروال أبيض طويل، يصل إلى منتصف الساقين، وطاقيته البيضاء التي لا يخلعها مستكينة فوق رأسه. لم يكن لدى الجد أية نية للإيذاء، لكنه عرف كيف يرهبهم وعندما اطمئن إلى أنهم ذهبوا إلى غير رجعة، دخل البيت مطمئنًا. وقف الأطفال في نهاية الزقاق ليحددوا خريطة الوقت المتبقي حتى يؤذن للظهر.

-٢-

قصدت الفتيات الكُثبان الرملية الملاصقة للبيوت من الناحية الشمالية، ولحق الأولاد بهن. تلك الكثبان الجهمة، أتت على معظم البيوت المهجورة شمالي الواحة. زحفت فوق أسطحها وتمددت حتى طمرتها تمامًا. صعدت الصغيرات أعلى الكثيب الرمليّ، ثم تدحرجن للأسفل بينما حاول الأولاد لفت أنظارهن ـــــ كعادة الذكور دائماً ـــــ ونجحوا في ذلك:

خلع الولد أمين جلبابه وألقاه جانبًا، وبدا، بسرواله الواسع الطويل وساقيه النحيلتين، مثل فزّاعة الطيور. شمّر محمود جلبابه وعقده حول خاصرته، كما يفعل أبوه "عبدون" حين يبدأ العمل. نظر إليهما سالم مليّا وهو يهز رأسه مضيّقًا من حدقتي عينيه، ثم قال: "أرعو جَي، أني ح اعمل حركة دِلْوَقّ والراجل فيكم يعمل زي ما عملت". نظرا إليه في ريبةٍ وعندما لاحظا أن الفتيات يراقبن الموقف، اعتدلا في وقفتيهما وقَبِلا التحدي: "موافقين، فرَّجْنَا".

خلع سالم جلبابه الذي كلح لونه وألقاه على طول ذراعه: رفرف الثوب في الهواء مثل طائر صغير، ثم حط مستكينًا على الرمال. أما الولد فقد تقهقر بضع خطوات للخلفً، ثم وقف ثابتًا، مستقيم الظهر، رافعًا

رأسه قليلًا، ومثبتًا ناظريه على نقطة ما في الفراغ. وفي حركة بهلوانية قفز عاليًا وهو يثني جذعه فاردًا ذراعيه للأمام ـــ كان كمن يُلقي بنفسه في بحر عميق ـــ ثم هبط واقفًا على يديه؛ بساقين منتصبتين ومفتوحتين في اتجاه السماء. ظل برهة على ذلك الوضع، يتمنى أن ينظر في أعين أصدقائه لكنه لا يستطيع أن يرى الآن إلى غابة من السيقان ومن ورائها يلمح العالم بالمقلوب. تحرك بعد ذلك عدة خطوات ماشيًا على كفيّه المفرودتين، ومنتزعًا، بخفة حركته وبراعته، إعجاب الفتيات. عندما انتهى، وقف واضعًا يديه في خاصرته، متحديًا بنظرة لا تخطئها عين: "إقْشَعْ.. دي حركة بتاعة عيال، وإحْني رجَّال" قال محمود ذلك ثم اندفع قافزًا من أعلى قمة "الغرد" ليهوي نحو الأسفل لمسافةٍ استحق بها إعجاب الآخرين.

ابتعدت الفتيات مسافة كافية بعد أن تحلقن وتهامسن: تريد ريحانة أن تقضي حاجتها.

كان الأولاد قد انهمكوا في اللعب فلم يكترثوا لغياب الفتيات اللواتي هبطن الكثيب وتمشين إلى الشمال قليلًا، في مساحة منبسطة تتناثر فيها أشجار السنط وتتخللها بعض الحشائش الفقيرة. اختبأت البنت وراء إحدى الأشجار وقضت حاجتها ثم عادت، مقترحة على رفيقتيها أن يصعدن الكثيب الرملي من الناحية الشرقية ليداهمن الأولاد من الخلف.

أمسكت سميَّة بذراع كُحْلة، تعينها على الصعود بينما تقدمتهما ريحانة التي كانت تتطلع إلى فوق، فانزلقت قدماها في فجوة صغيرة بسقف أحد البيوت المطمورة. أطلقت صرخة مفزعة وهي تضرب بذراعيها هنا وهناك محاولة التشبث بأي شيء. لا شيء هنا سوى الرمال الناعمة التي تواطأت مع ذلك الثقب المظلم وهو يجذبها للأسفل، لتسقط في جوف البيت. ارتعبت الفتاتان وتواصل صراخهما بينما يتابعان جسد ريحانة الذي يغوص في الرمال حتى يختفي تاركًا فجوة عميقة ذات شكل مخروطي تنثال الرمال من ثقبها الضيق نحو الأسفل المظلم.

اندفع الأولاد هابطين، في اتجاه الصراخ المتواصل. تحلقوا حول الحفرة التي صنعها انهيال الرمال داخل الثقب. يبدو أن ريحانة قد داست، أثناء سيرها، على "روشن" في سقف أحد البيوت التي طمرتها الرمال.

عويل وصراخ في الأعلى، وريحانة في عمق الظلمة العتيقة تصرخ فيتناهى صراخها إلى الآذان بعيدًا ومكتومًا. طار الأولاد في اتجاه العمران تاركين الطفلتين ترقبان الظلمة التي انبثقت من وسط الرمال.

لم يتبق أحد يتنفس في هذه الواحة إلا وكان بالقرب من الحُفرة. الرجال بفؤوسهم، يزيحون الرمال بعيدًا، ويقطعون بمناجلهم جريد

السقف موسّعين بذلك محيط دائرة الثقب، مما سمح لمزيد من الضوء أن يتسرب للأسفل والنساء على مقربة منهم يولولن ويلطمن خدودهن. كان "غزال" والد الطفلة يروح ويجيء، يرفع وجهه نحو السماء متضرعا، بينما كانت أمها "عفاف" قد انهارت تماما، ودخلت في نوبة هياج عصبي.

تحزّم جدها "عبد الحي"، حارس الحقول، بحبل حول خاصرته وطلب من الرجال أن ينزلوه للأسفل كي يرى ما حدث لحفيدته. بادر أحدهم وطلب من الجد أن يسمح له بالنزول بدلًا منه، لكن الجد رفض رفضا قاطعًا. تحرك الشيخ ونّوس ما يقرب من خطوتين، صار بعدهما على حافة الثقب مباشرة. مط رأسه للأسفل مناديا على الصغيرة، لكنها كانت قد كفت تمامًا عن الصراخ والعويل، ولم تعد ثمة حركة تصدر من الأسفل.. تحلق الرجال حول الثقب، والحبل الغليظ الذي رُبط به الجد بين أيديهم، يرخونه في حرصٍ وبطء شديدين للأسفل، رويدًا، رويدا.

-٣-

عاد الشباب من الحقول، فلم يقابلهم مخلوقًا واحدًا حتى اقتربوا من بيت عبد الحي. كان الأطفال يلعبون. يتعلقون في بواب البيت الثقيلة، يغلقونها ثم يفتحونها في صخب كأن لا علاقة لهم بما يجري في الداخل. لم يزجرهم أحد أو حتى ينتبه إلى وجودهم. تجمع الرجال حول الصغيرة، بينما جلس النساء يواسين الأم التي كانت قد توقفت عن الهذيان.

أخيرًا، استطاعت عفاف التقاط أنفاسها. هدأت الآن، وجلست لا تحرك ساكنًا سوى النظر ناحية ابنتها بعينين مغرورقتين بالدموع. فحصها "عِثْمَان المجبراتي" ــــ جدها لأمها ــــ جيدًا وقال إنها أكثر قوة ومتانة من المسامير التي يصنعها الحداد وليس بها كدمة واحدة. اتجه "مسلَّم" و"عبدون" نحو "غزال" ليطمئنا على ابنته، بينما تأخر "غانم" قليلًا عند البوابة يسأل الأطفال عن ابنه أمين، فأخبروه أن امه أرسلته إلى البيت.

مسلَّم يرمق عفاف بين الحين والآخر بنظرة خاطفة، تفهم مغزاها طبعًا، وترد له الجميل على استحياء. رغم أنه تزوج وأنجب، إلا أنه ما زال يحمل لها الكثير من المشاعر التي لا يجرؤ على الجهر بها، ولو حتى لنفسه، بعد أن تزوجت جاره وأنجبت منه "ريحانتها" التي ترى

أنها عوضًا رائعًا يستحق العيش من أجله.

أبو هشيمة

يهبط الليلُ كزائرِ غريب،

لا يملك إلا ابتسامته،

فتأوي الأحلام إلى أعشاشها،

وتختبئ الأغنيات بين ثنايا العشب:

الأغنيات التي كبرت كشجرة وحيدة

عرّشت على دروب الصحراء...،

هَبَط الليلُ بظلمته الثقيلة في الشوارع والأزقة متشبَّثًا بالزوايا والأركان، تاركاً في بعض النفوس كومة من الارتياح والسكينة، وفي بعضها الآخر انقباضاً ومشاعر مرتبكة وغامضة.

وبّخ "أبو هشيمة" نفسه، عندما اكتشف أنه يقف خلف الباب، مُنصِتاً لكل حركة تصدر في الخارج. كان نومه خفيفًا بطبيعته، يستيقظ في الليل لأهون الأسباب: قطة تموء، كلب يمرّ أسفل نافذته أو غصن شجرة يحركه الهواء. لم يكن كبره في السن هو سبب أرقه الليلي الزائد، لكنه كان قد أنجب ولدين من زوجته الأولى وعندما صارا شابين

يمكن الاعتماد عليهما، غادرا الواحة. رحلا إلى العاصمة للعمل، ويبدو أنهما تأقلما مع الحياة هناك، فقررا ألا يعودا ثانية. كان الأب يعرف مكان إقامتهما هناك، وكان يبادلهما الرسائل، لكن أخبارهما انقطعت منذ عام مضى، بعد أن وردت الأخبار بأنهما انتقلا للعيش في منطقة أخرى دون أن يتركا أثرًا.

استيقظ هذه المرة لأنه سمع صوت أبيه يناديه. هب من نومه يتلفَّت، فقد جلجل الصوت في أذنيه واضحًا. جلس في الفراش محاولًا أن يتذكر آخر مرة رآه فيها في منامه، فسمع كأن أحدهم يذهب ويجيء في خطوات ثابتة أمام الباب. دارت الأسئلة في رأس الرجل الذي يخوِّفون به الأطفال في الواحة عندما يرفضون النوم أو يسيئون التصرف. أبو هشيمة رجل قصير، مُشعر، ذو شارب كث، تشبه ملامح وجهه القاسية ملامحَ وجوه المجرمين، بيد أنه أطيب خلق الله وأكثر رجال الواحة صبرًا. أنجبت له "مُنيرة" ـــــ زوجته الثانية ـــــ بنتًا واحدة، ثم انقطع عنقود حملها بعد ذلك.

انتزع أذنه التي التصقت بخشب الباب، عندما فاجأه صوت زوجته، وهو على تلك الحال مستفسرة عما يفعله في مثل ذلك الوقت. "ولا شيّ"، قال. لكنها خمَّنت من طريقة وقفته أنه يتنصَّت إلى حركة ما خارج الباب.

تعرف الزوجة أن كنية "أبو هشبمة" تغيظه، لكن أهل الواحة نسوا

أو تناسوا أن له ولدين يسدَّان عين الشمس، لكن أين هما الآن؟ هو يعرف ذلك أيضًا. وقد عاش لسنوات يجد صعوبة في تصديق ما آل إليه حاله. ماذا سيكون مصير سيارته التي تجلب المواد التموينية لأهل الواحة نهاية كل شهر؟ لمن سيتركها إن لم يعد وَلداه من الغُربة، لهشيمة ابنته أم لزوجها؟ سيارته التي تأتي من المدينة البعيدة ومعها الخير، فيهلل الذين ينتظرونها في ظل شجرة الدوم لمرآها: "سيارة "أبو هشيمة" ذهبت، سيارة "أبو هشيمة" جاءت"، ثم ينكبّون على صندوقها الخلفيّ، يتحسسون البضائع: زيت، سكر، شاي، بن، ملح وكيروسين لإضاءة مشاعلهم وفوانيسهم.. يغوص في أفكاره ثم يخرج بنتيجة واحدة مؤداها أن الأيام استطاعت أن تضربه في مقتل.

هل يستطيع أحد أن يخبره بأن الذين أنجبوا يوماً وملئوا الدنيا بنين وحَفَدَة قد غادروها، ولا ذِكر لهم الآن، كأنهم لم يكونوا يوما؟ مُحيَت آثار خطواتهم من الدروب وغابت ملامحهم من ذاكرة الناس. صارت ملابسهم خرقا تُسَد بها تشققات الجدران واستُخدمت عمائمهم، التي كنت مصدر زهوهم، مرقدًا ومهادًا للأحفاد؛ يبولون عليها في اليوم الواحد مرات عدة.

استند بكفه إلى الباب، بينما تدور زوجته في المنزل. راحت منيرة وجاءت عدة مرات وهو على وقفته، لم يتزحزح. جَمَعَت حطباً، وألقته إلى جوار الموقد الطيني، في "حجرة الطبيخ". فتحت باب "حجرة الخزين"

وغابت لدقيقتين ثم خرجت. فعلت كل هذا والفانوس الصغير في يدها لا يهتز، كأنها وُلدت به. وجدته واقفا مكانه. وقفت في مواجهته. كان غارقا في أفكاره، فلم ينتبه لها. رق قلبها لحاله. قالت بتودد بالغ "إيه يا راجل، ادلُق ورا ضهرك" نظر إليها. رفعت الفانوس عاليا أمام وجهها. كان وجهها جميلًا لم يزل. لم يره جميلًا هكذا منذ زمن. ابتسمت؛ ابتسم لها، تحركت من مكانها، استدار نحوها، سارت تخطر إلى حجرة النوم فهرول في أثرها.

رشيدة

-١-

فقط،

امهلني يوماً آخر

ألملم فيه أحزاني،

أضعها في صُرّة،

وأعلقها، كتميمةٍ، على صدري الذي يقتله الشوق

وعندما تهزّني الريح

ستصدر صوتاً خافتاً كالأنين، كناي وحيد،

يهرع الناس إليها،

يضيئون الشموع، ويضعون النذور،

بعد أن يهمسوا بأمنياتهم

التي لن تتحقق بالطبع.

شهقَت واتسَعَت حدقتا عينيها عندما فوجئت به يقف في مواجهتها

حابسًا بقايا ضوء النهار التي تحاول جاهدة أن تنفذ من عُمق الزقاق الضيق إلى داخل البيت. كان يقف كصخرة ضخمة لا يمكن زحزحتها إلا بمعالجتها والتحايل عليها. سألته وهي تضرب على صدرها الوثير بباطن يدها:

"إيش تريد يا جُنَيْد؟"

انتبه إلى اهتزازة ثدييها الطافرين، تأملهما في صمتٍ ولم ينطق. لاحظت وجومه، وسكون الجبال الذي يبدو عليه. هي موقنة أن ذلك السكون الذي يغلف الجسد العفيّ يحوي داخله بركانًا يريد لو يتفجر.

خرج السؤال من بين شفتيها بينما تحدق في وجهه.

لم تحمل نظرتها أي نوع من الخوف أو الارتباك، ولم يستطع أن يتبين فيهما أيا من حركات الإحجام أو الإقدام، لكنه رأى على ملامح وجهها شيئا لا يعرف كيف يصفه؛ لقد أخذت ملامح وجهها مظهر الظافر المنتصر الذي يحبس فرحته- جاهدًا- كي يبدو، في أعين معجبيه، غير مهتم بما أنجز.

كانت تبدو، في ثوبها البيتيّ مثل حديقة عامرة بالأزهار؛ ثوب ناعم خفيف، ذو ألوان حادة مبهجة، يظهر من بين ثنايا أرضيته البيضاء اللون البنفسجي لقميصها الداخليّ القصير.

ارتبكت عندما اصطدمت نظراتها به.. ثم بدا وجهها حياديا كأنما قُد

من صخر. لا يدري "جُنَيْد"، على وجه التحديد، فيم فكرت وهي تراه يسد عليها طريق الخروج، وفي عينيه نظرة تصميم لا تلين.

***

أحكمت الظلمة قبضتها على المكان الذي سقط، منذ لحظات، في هوة واسعة من الصمت. كان لتنفسهما اللاهث صدى تردده جدران المدخل المكشوف للسماء. كان جنيد يدفعها إلى الحائط فتأن أنينًا خافتًا، بينما كانت أصابعه الغليظة تتجوَّل متعمقة خلال تضاريس جسدها بقسوة تليق بكل لحظة انتظار وحيرة أذاقتها له. كان جسدها ينقبض وينكمش على نفسه مع كل لمسة أحدثتها أصابعه التي ازدادت خبرتها، بمكامن الجسد الأنثوي، بالتدريج. تلك كانت المرة الثالثة التي تتوغل فيها أطراف أصابعه في انعطافات ذلك الجسد الذي طالما اشتاق للمسة واحدة.

استراح جنيد لاستسلامها التام هذه المرة، فقد أجهده صدودها وإحجامها في المرة الأولى، وحيّره ترددها في المرة التالية لها. لم تستجب خلالهما إلا بعد طول عناء. تردده وجهله كانا واضحين لها أيضا، فقد تأكدت بعد لمستين وقبلة واحدة، في أول لقاء، أنه لم يقف في حضرة أنثى من قبل. ارتخى جسدها متجاوبًا لينًا سهلًا، بعد أن استيقظت حواسها وتأججت. استسلمت تماما مثلما تستسلم قُطيطة صغيرة بين يدي سيدها يعبث بها ويقلَّبها بين أصابعه كيفما شاء. رأسها منسدل للخلف

وعيناها مغمضتان وأنفاسها اللاهثة تخرج ساخنة من فمها المتردد بين انفراج وانغلاق بينما يقفز صدرها للأمام داخلا في صدره الواسع مع كل شهقة تندفع خارجة من بؤرة متوهجة بعيدة الغور. لم تنتبه لانزلاق غطاء رأسها الأسود الذي دهساه تحت أقدامهما متشربًا تراب المدخل الناعم وممتزجًا بلون الأرض. انكشف شعرها الطويل متحدا مع عتمة الليل فأمسى يحتك بالجدار الطيني كلما ارتطمت رأسها به. كانت تفتح عينيها قليلا فتطلّان على بقعة مستطيلة في سماء بعيدة متشحة بالسواد ومزينة بنجوم باهتة فتظن أنها في حلم ممتع حتماً ستفيق منه.

في عُمق الدار؛ قادته إلى غرفة شحيحة الضوء. بالكاد، لمح فراشها الذي يحتل أرضية الغرفة إلا قليلا. جذبها لأسفل فانصاعت مطواعة كنبتة غضة، رقدت إلى جواره، لمحت ابتسامته التي تفور بالدفء. مدت يدها إلى رقبته ثم انزلقت، متتبعة شعيرات صدره، رويدًا، رويدًا إلى الداخل، حيث دفء جسده الملفت ونبضات قلبه المتسارعة: "انت بتنهُت كدي عجه؟"؛ سألته لماذا يلهث هكذا. أخذ يدها ووضعها بين فخذيه فاصطدمت بشيئه المنتصب. وبينما يخبرها أن هذا الشيء هو سر لهاثه كانت قد دفنت رأسها في صدره وأحاطت أصابعها بذلك المتحفز المفعم بالحياة.

قأقأة الدواجن في البيت، نباح الكلاب، ونهيق الحمير، بكاء طفل في الجوار؛ كل تلك الأصوات كانت تصل إلى مسامعها غريبة ومختلفة

عما ألفته، بالكاد كانت أذناها تلتقط تلك الأصوات كأنما تصلها من عالم آخر. كانت مغمضة العينين عندما باعد بين ساقيها، ثم وهو يأخذ وضعه فوقها، امتدت يداها تسحبه من ذراعيه وتجذبه إليها. ظل يتحرك داخلها بنعومة وهدوء، حتى إذا ما شعر بتفتح كل مسام جسدها دخلها بعنف فتلوَّت تحته وأنَّت أنينًا خافتًا. ثوبها البيتيّ، الذي تخلصت منه في عجلة بعد أن أحست به يقيد حركتها ويخنقها، راقد في استكانة تحت ملابسه التي طوَّحها على طول ذراعه. اختفى البيت، الحجرة، السقف، الفراش، الأصوات الخارجية. لم يبق سواهما؛ معلقان في فضاء ما، ومعجونان بعرقهما.

كانت قبل سويعة من حدوث ذلك قد سحبته من يده وأحكمت رتاج بوابة البيت الثقيلة. تشده من يده، في عَجَلَة، إلى الداخل. قبضت على يده فانصاع سائرا يتحسس موطئ قدميه كضرير يستكشف المكان للمرة الأولى. تعثر في قصعة من الفخَّار فانكفأت محدثة صوتا مكتوما متواطئا بينما ارتطم كتفه بكتفها الطري. ضحكتها الخافتة انخلع لها قلبه. حرر يده من عناق أصابعها الطرية وضربها على مؤخرتها.

كادا أن يتجاوزا قاعة البيت الطويلة المظلمة عندما تعثرا في ضفيرة الخوص الملقاة في الطريق؛ التفت على قدميها فقيدت حركاتها. حاولت رشيدة التخلص منها فانكفأت على بطنها وأمسى جنيد فوقها تماما مستمتعاً بطراوة الجسد الذي يتلوى تحته: "أنت عميت؟" صاحت

متأملة: "الدني ضلمة سُكّة"، همس وهو يكتم ضحكته.

***

تتبَّع فتيان الواحة خطوات قاسم ورشيدة وترصّدا وقت خروجهما من البيت، حيث اعتادا أن يشبِّكا أياديهما على مرأى من الجميع. يتمايلان ويتضاحكان في طريقهما اليوميّ نحو "الغابة الصغيرة" دونما خجل. كانوا يتتبعون خطواتهما في السر، بينما ينظرون إلى مؤخرتها وهي ترتج، حتى إذا ما جلسا في ظل أشجار "البامبوزيا" المتشابكة الأغصان وتأكدا أن المكان خال من أنفاس البشر، أتخذ هؤلاء الأشقياء من الجذوع المتقاربة ساترًا لهم، ثم أقعوا في صمتٍ يتلصصون عليهما مستمتعين بكل حركة تصدر عنهما.

وَجَدَت تلك "التمشية" اليومية ــــــ التي رضخ لها قاسم بناءً على طلب رشيدة ــــــ أكوامًا عالية من نميمة النساء، وتزينت بها مجالسهن لفترة، إلا أن الشيخ "ونّوس" منعهما من الخروج بذلك الشكل، عندما ترامى إلى مسامعه تلك الزيادات والمبالغات التي أضافتها الحاقدات على الزوجة الشابة الجميلة. قالت نسوة في الواحة إن رشيدة على يقين بأن أولئك الأشقياء يتتبعون خطواتها وإنها تصر على إفسادهم بضحكتها المغناج التي تقشعر لها الأبدان، ومبالغتها المكشوفة في هزّ مؤخرتها بينما تخطر أمام أعين المارة. قالت إحداهن بصوت اخترق آذان الحاضرات: "ايش كنتو مستنيين من قحبة زي دي؟" وأكدت أخرى أنها ضربتها على

وجهها عندما رأتها، بالقرب من الغابة الصغيرة، تغازل ابنها الوحيد وتراوده عن نفسه.

-٢-

غطست الشمس تماما خلف الكثبان الرملية العالية غرب الواحة، تاركة جدائلها البرتقالية الضاربة إلى الحُمرة تتخبط مستميتة في مواجهة جيوش العتمة التي تزحف هابطة من أعلى حواف الهضبة. حين تدخل العتمة، تسقط الحياة في بئر عميق من السكون.

الكلاب الضالة التي تشعل الجو بنباحها المتواصل، تسكت فجأة كأن شيئاً ما، هبط من السماء أو انبثق من الأرض، قد ألجم الحيوانات في الحظائر والطيور الداجنة في أفنية البيوت. ما من كائن يتنفس أو يطل برأسه خارج الجدران.

سألته رشيدة: ماذا تريد؟ اشتعل في صمته، لكنه ثقب ستائر أنوثتها المتفجّرة بنظرته التي لا تحيد. هل كان جنيد على علم بتلك الأوجاع التي تشطرها نصفين؟ ذلك الاحتياج إلى رجل كان قد أغرقها في دفء ينابيعه، ثم قذفها فجأة على قمة جبل يغطيه الجًليد!

ثمة لحظة في الحياة يضربنا فيها البرق، فتتغير كيمياء الأجساد في الوقت الذي يعود فيه العقل صفحة بيضاء تستقبل أقل نقطة حبر، وتشكلها حسب إلحاح الرغبة الماثلة. حينئذ، يتلاشى الماضي وتتخلق

أمام أعيننا نضارة اللحظة، متعتها وعفويتها. نختزل العالم في تلك المشاعر التي تقتحمنا لحظة العشق، لحظة الجنون، فلا نتعب عقولنا لنجد لها مبرراً نقتنع به، ويقتنع به الآخرون فيما بعد.

لم يكن السؤال ـــــ الذي ألقته بطريقة مستفزة ـــــ سؤالًا عاديًّا، بل إنه أشبه بقطعة عجين أدخلت إلى نار الفرن لتنضج، ثم خرجت شهية طازجة، مُبللة بعسَل ريقها الذي يشتهيه. لم يكن سؤالها عما يريده منها استنكارا، بل تحفيزًا له على المضي قدمًا نحو ما يريد. لم يخطط للقائها في هذا الوقت، ولا يدري لم دفعته قدماه ليمضي في الزقاق وحيدًا، في حين لاذ كل كائن يتنفس إلى ملاذه الآمن خوفا من أن يتلبَّسَهُ أو يمسَّهُ طائف من الجِن الذين يطوفون الأزقة والدروب بعد كل مغرب شمس. يتربصون بكل من تسول له نفسه أن يشاركهم وقتهم الوحيد الذي يمتلكون فيه الدنيا. لقد اتخذ قراره فجأة؛ مشجعًا نفسه بالمثل الذي كثيرا ما سمعه طوال مكثه في هذه الواحة: "يا صابت، يا اتنين عُور".

سار حتى منتصف الزقاق ثم اضطربت دقات قلبه وتسمرت قدماه: هل أخطأ في اختيار التوقيت؟ لم ير جنيًّاً من قبل، لكنه يعرف بحقيقة وجودهم وما أكثر الحكايات التي سمعها. اختلطت عليه المشاعر وبرزت أمام عينيه الخيالات تتقافز هنا وهناك. قلبه يدور مندفعا في دوامة كبيرة، لكن عقله يتقدم في صبر وتأن. تثاقلت قدماه قليلا إلا أنه

أرغمهما على المسير بعد أن فكر في عيون "رشيدة"، وقال لنفسه إن من يحبس نفسه داخل قفص مخاوفه لن ينجز أيا مما يحب.

سار متمهلاً لا يفكر في شيءٍ ولا يرى شيئًا سواها. كانت قدماه تحمله ورغبته تدفعه في ظهره فلا يكاد يطأ أرض الزقاق التي كنستها الريح في النهار فأمست صلبة عارية. كان الهواء يحمل لسعة بردٍ غالبا ما تغلف جو الواحة في أول الليل. المشوار إلى بيتها قصير، ولا يحتاج إلى كثير عناء، لكنه يحتاج حتما إلى الإرادة.

"إيش تريد؟"، سألته، بينما كانت ذراعها اليمنى قد ارتفعت لتستند إلى بوابة البيت الثقيلة فنهض ثديها الأيمن معلنا تحديه. أجابها بنصف ابتسامة، متوقعًا ردة فعلها. ضيّقَت من حدقتيّ عينيها الواسعتين فاقترب خطّا الكُحل في أهدابها حتى كادا أن يصنعا خطا واحد كثيفا.

تقدم نحوها خطوة واحدة فأرخت ذراعها المستندة إلى البوابة وتقهقرت قليلًا إلى الوراء. أمست هي في الداخل بينما وقف جنيد على الحد الفاصل بين الداخل الدافئ والخارج المُوحش. سألته عما جاء به في مثل هذا الوقت وهو يعرف أنها امرأة وحيدة.

تغيرت نبرة صوتها؛ أمست أرق وألطف. أمسى صوتها أقرب لصوت امرأة اكتشفت فجأة أن زوجها غائب عنها؛ امرأة وحيدة وفي أمس الحاجة لرجل؛ لهذا الرجل الواقف في مواجهتها، الرجل الذي يترصّدها منذ أن سمع النداء، الرجل الذي ظلت تشاغله وتشعل

داخله النار، ثم تتجاهله متصنعة اللامبالاة، الرجل الذي تستغرب الآن توقها إليه ولا تدري ما الذي يجذبها نحوه.

نظراته تنصحها بالهدوء، بتدبّر الأمر وعدم التسرع في اتخاذ قرار قد لا تستطيع العدول عنه بعد ذلك. ثباته وابتسامته الهادئة استئذناها في الدخول وفي تجاوز لحظة القلق. يشعر بأنها سترضخ هذه المرة بعد صدودها الذي غرس في قلبه شعلة الشوق التي كانت تزداد توهجاً في كل مرة. يشعر أنها سترضخ؛ فقد مرَّت الكلمات ناعمة من بين شفتيها، بينما عيناها الغارقتان في بحر من الكحل، تتفحصانه من قمة رأسه إلى أخمص قدميه.

-٣-

ذات يوم، وقف عند أقصى الركن الشرقي لفناء بيتها، متأملًا ذلك الكائن الأحمر وهو يرفرف مقاوماً الأشواك الإبرية الحادة التي تنغرس في أماكن متفرقة من جسده الطيفيّ السابح في الهواء. علق الثوب الرقيق في أحد أفرع شجرة السنط الباسقة داخل سور البيت الواطئ. شجرة سنط ضخمة ممتدة الأغصان، تلقي بظلالها على بقعة واسعة من الفناء وجزء من الزقاق الغربيّ. ألقى نظرة إلى الداخل. كانت ملابسها الملونة منشورة على حبل غسيل مجدول بإتقان من مَسَد النخيل، وموثوق من أحد طرفيه في إحدى الدعامات التي تحمل تعريشة الخوص أسفل شجرة السنط، ثم يمتد بعرض الفناء حتى السور الشرقيّ.

سخونة الشمس أرغمت القميص على أن يجف في لمح البصر، كما أن هبة الرياح الصباحيّة فكت قيده وطيّرته في الفضاء، فتلقفته الشجرة ومنعت زمامه أن يفلت ويتيه معربدا في الطرقات. أما بقية الكائنات القماشية فقد كانت تتراقص فوق حبل الغسيل بعد أن تسرَّب الماء من أنسجتها، حافراً في الأرض أخدودا طويلا وضيقا.

لقد تحرر هذا القميص، المغلوب على أمره، من شرك الجسد، من ملامسة البشرة الدافئة، ومن رائحة العرق الأنثوي، سابحاً في الهواء

ومرفرفاً بجناحي خياله بين الأشجار يحدق في هذا العالم الذي يجهله. لو استطاع أن يتحدث، لبث أفراحه وأحزانه إلى الطير وشواشي الأشجار وحكى أسرار صاحبته وأشواقها وفسَّر ذلك التناقض القاسي بين قلبها وعقلها.

أين تجد مَن يرهف السمع لبوحك وأنت تنهض ـــــ بعد أن يصل الجسد إلى ذروة نشوته ـــــ مضرجاً بعرق ذكوري تفتقر صاحبتك إلى وجوده الآن. تنهض وقد غدوت مجعداً نتيجة قبض الأيدي وخمش الأظافر. لابد أنك نادم الآن على تحررك هذا. يبدو أنك اعتقدت بأنك ستكون حرًا مستمتعًا بكامل حريتك مثل الرايات والأعلام، حين تراها تخفق عالياً عندما يضربها الهواء فترفرف بأجنحتها، تستلذ بالعلوّ، بتسرُّب الهواء البارد بين ثنايا أنسجتها. أنت لم تكن تعرف أن الحرية للملابس التحتية مفسدة حقيقة. إن حريتها وسر وجودها وراحتها الكبرى وسعادتها القصوى تكمن في احتكاكها بالأجساد البضة الدافئة، في استمتاعها بالضوء الخافت في عمق الحجرات المغلقة، وفي هسيس الأقراط والأساور إذ تمسي أداة وصل بين جسدين عاشقين.

انغرست الأشواك الإبرية لشجرة السنط بين ثنايا القميص الأحمر فظل معلقاً رغم محاولة الرياح المستميتة في نزعه من مكمنه. أوقعه حُسْن حظه، أو ربما سوء حظه، في قبضة شخص طالما اشتاق إلى لمسِه.

برفق وصبر، حرره جُنيد من أشواك الغصن، ثم تحسسه، مُغلقًا

عينيه، متخيلاً الأماكن التي يحلم بلمسها، ومخلفاً في كل موضع مرّ عليه لهيباً كاد يحرقه. تتراءى له رشيدة داخل فضاء أهدابه المطبقة، مثل طيف أحمر يسبح في ضوء رمادي ضارب إلى البياض...

"اقتربي أيتها اللبؤة". تواجهه مثل قطة متحفزة تعرف قدر خصمها. يتقدم في ثبات، بكل القوة المستمدة من يأسه وطموحه باتجاه الجسد المشع السابح في الضوء... عندما دخل في نطاقها، أحس بجسده خفيفاً، بينما ارتفعت قدماه قدر بوصتين عن الأرض، ثم نهق حمار "عشومة العايق" بصوته المُنَفِّر، فتناثر المشهد الدافئ في فضاء الواحة. طوى القميص الرهيف ثم كوره داخل قبضته.

اقترب من السور الواطئ ماطًا رقبته ومتلفتًا يمسح الفناء بناظريه. تحت تعريشة مواعين الماء (المزاير) الفخَّاريّة، وجدها تجلس القرفصاء، وقد انحسر ثوبها حتى أعلى الركبتين. امرأة في فورة الشباب، متجردة من غطاء رأسها، تمشط شعرها، الذي كان يلمع في ضوء النهار، بمشط (فلاية) خشبيّ. وقف فاغرًا فاه وقد بدأ يسمع نبضات قلبه التي أخذت في التسارع. لم يرها من قبل بشعر متحرر يظهر كاملًا من منبت الرأس ومنسدلًا إلى منطقة الخصر، ناعم وطويل. ووجهها الأسمر في تمام استدارته. انتابته رغبة ملحَّة في أن يغادر المكان ويختفي إلى الأبد. لكن رغبة مناهضة لسابقتها قد ألحَّت عليه بعد هنيهة. دفعته في ظهره دفعًا كي يتخطى السور الواطيء في قفزة واحدة ويمثُل أمامها معترفًا

بكل مشاعره وكل ما فكر فيه وما راوده من أحلام أيضًا. كانت المشط تنزلق في خفة بين ثنايا شعرها منسابة نحو الأسفلَ، حيث غَفَت على فخذيها قطعة قماش بيضاء صغيرة. يبدو أنها ضبطت حركة رأسها الذي كان يتمايل هونًا إلى الأمام وإلى الخلف على إيقاع أغنية تناهت إلى أذنيه كهديل حمامة هجرها أليفها:

طباباتك ماتوا يا جرح

وانت لساك حيّ

اجيب منين الدوا

صفصف عليه الحيّ.

بدا إيقاع صوتها الحزين الهاديء، متوافقًا تمامًا مع حركة رأسها المنتظمة بينما بدت يدها القابضة على المشط مثل قائد الأوركسترا، في حركة صاعدة هابطة لا تسبق حركة رأسها قيد أنملة ولا تتأخر عنها.

-٤-

رأت في عينيه شيئًا ساحرًا، وتشممت في جسده رائحة ذكورة قوية، تلك الرائحة التي نثرها الإله في هواء العالم، فغشت كل حضر وبادية متغلغلة في الأجساد التي تهيأت لاستقبالها، حتى الصخور الناتئة الصلدة التي طالتها الرائحة هبَّت تجد في أثر التجاويف الأنثوية الصخرية المهيأة بطبيعتها للاستقبال، للاحتواء، ولاختزال المسافات بين العاشق والمعشوق.

كلما أطل بوجهه حادّ الملامح، تنهار أبواب القلاع الحصينة داخلها، وتنطلق من صدرها فراشات بأجنحة ملوَّنة. ظل يترصدها كلما سنحت له فرصة، وظلت تصد سهامه بتكبر وشموخ يغيظانه ويزيدانه إصراراً. تعرف أنه يتتبعها، فتتعمد، حين تجمعهما صدفة المرور في الزقاق، أن تزم شفتيها وتعتدل في مشيتها متخذة سمت الجدية والوقار، بينما تصهل داخلها الكلمات: "سيتعين عليه أن يبحث عن مدخل آخر يحاول منه التودد لي".

أما هو فكان يعرف أن ما تحاول التظاهر به لا يعكس حقيقة اشتهائها له وتطلعها إلى احتواء نتوءاته داخل تجاويفها. هو متيقن من زيف ما تتظاهر به، فمتى كانت حركات الجسد أو ما نتلفظ به الأفواه من كلمات

دليلاً على ما يعتمل في صدورنا. إن الكلمات هي آخر وسيلة للتعبير عن المشاعر، وأقلها فعالية.

❊ ❊ ❊

بعد أن استقر به المقام، ظل لعدة أيام يتفقد المكان. يتمشى في الأزقة نهارًا. يتطلع إلى واجهات البيوت متأملًا ارتفاعاتها ومعاينًا أسوارها، نوافذها، أفنيتها الضيقة والأشجار التي تنتصب داخلها، الحظائر، صوامع الغلال الطينية فوق الأسطح. وكان يسير ليلًا ليرى كيف تبدو ملامح البيوت في ظلمة الليل.

تصادف بمرورها في الزقاق. كانت قد تجاوزت بيت عبد المنعم الجن بمصطبتيه الطينيتين الممددتين بطول الواجهة الأمامية على يمين ويسار البوابة الخشبية الكبيرة. أسقطت المفتاح الخشبيّ لبوابة بيتها، ثم انحنت لتلتقطه. لم تفعل شيئا سوى أنها تفننت في أن تطغى مؤخرتها على كامل المشهد أمام عينيه، وتكفلت ثيابها الناعمة التي تفضل ارتدائها بإبراز مثالية مؤخرتها. تلكأت في التقاطه، استغرقت، تقريبا، ضعف الوقت الذي نحتاجه لالتقاط مفتاح كهذا.

ثمة بضع كلمات على طرف لسانه تتهيأ للخروج، لكنه زجرها فامتثلت، بعد أن فكر في ماهية النتائج السلبية التي قد تترتب على ذلك. أغاظه الموقف بلا شك. تعمد أن يسعل بشدة وزفر الهواء المكتوم في صدره دفعة واحدة، لكنها تغافلت عن كل ذلك، وأكملت طريقها كأن

لم تعرف بوجوده. توقف يتأملها بينما تخطر في مشيتها كأن الدلال كله تجمع في امرأة واحدة. "لا تقلق يا جنيد، هي تعرف ما يجول في رأسك". هجس مطمئناً نفسه وهو يتابعها من الخلف حتى اختفت في انحناءة الزقاق. يمتد الزقاق – الذي يفصل بين البيوت المتراصة على جانبيه في شكل نصف دائرة – من أوطأ نقطة في الشرق ثم صاعداً نحو بيت عبد الحي عند أعلى نقطة فوق الربوة، ثم يبدأ في الانحدار هابطاً نحو الغرب واضعاً نهاية أطرافه عند مبتدأ الوهاد الغربية حيث تنمو أعشاب فقيرة ونباتات شوكية وتبسق أشجار الغابة الصغيرة، حاجبة مشهد المقابر القديمة عن الرؤية.

هكذا هي الحياة، صعود بطيء، يأتي بعده انحدار سريع نحو الهاوية حيث ينتهي إلى المقابر في أحضان أمه الأرض. كان قادما من جهة الغرب، عندما واجهته بكامل حضورها الأنثوي. أدرك، منذ ذلك اليوم، أنه يتعين عليه ألا يدع لحظة أخرى تمر دون أن يقترب منها. كان يراقب وينتظر. في المرة الأولى، لاحظ ذبولها وانطفاء بريق عينيها، ذلك البريق الذي يعده الكثيرون مقياساً لسعادة المرء أو تعاسته.

عيناها بائستان، تبحثان عن رفيق، عينان متعبتان وفي احتياج شديد إلى أنيس يسبغ عليهما بريقهما المفقود. نظرتها له كانت مختلفة تماماً عن نظرة أهل الواحة إليه كشخص دخيل، كعضو غير متجانس وغريب. خفق قلبه بقوة، شاكراً السماء التي أرسلت إليه من يراه من زاوية

أخرى، من زاوية كونه إنساناً مثل باقي مخاليق الله.

-٥-

ما أن أشرقت شمس يوم وصوله حتى شاع الخبر وعرفه الصغير والكبير: ثمة شاب غريب حط رحاله تحت شجرة الدوم الرابضة عند فم الزقاق الشرقيّ المؤدي إلى المدق الصحراوي الذي يربط الواحة بما جاورها من عمران. وطأ جنيد ثرى الواحة قبيل الفجر، ساحباً حماره الأسود خلفه، ومخلفاً وراءه صحراء لا نهاية لها، وأحداثاً لن تُمحى من ذاكرته. "كلها أرض الله"، قال في نفسه، وصورة أمه، وهي ممددة في لحظاتها الأخيرة على فراش مهلهل، لا تفارق مخيلته.

اختفت النجوم التي ظلت مشتعلة طوال الليل، غارت في مجاهل السماء البعيدة. يسير حثيثًا وأصابعه الغليظة تقبض على مقود الحمار. يتطلع إلى السماء بين لحظة وأختها بينما يثبت بيده الحرة حزاما جلدياً قديماً يشد به خاصرته. كاد أن يختل توازنه عندما توقفت دابته فجأة ثم جفلت للخلف خطوة أو خطوتين، في الوقت الذي فرت فيه الطيور من أوكارها دفعة واحدة محدثة جلبة وضجيجاً كسر هدأة الليل. وقف حابساً أنفاسه، يتلفت. يضيق من حدقتي عينيه محاولاً اختراق ظلمة الفجر عندما ظهر، على بعد أمتار، شبح قاسم الحداد وهو يحمل حقيبة سفره مغادرًا الواحة.

منذ أن حط رحاله هنا وعيناه لا تلاحظان ما يبشر بخير. يدرك أن أهل هذه الواحة يرفضونه؛ ملامحهم تشي بذلك، وما يمنعهم عن الصراخ في وجهه إلا موافقة كبيرهم على بقائه. حاول أن يتلمس لهم الأعذار، فالينابيع التي تقوم عليها الحياة في تلك الواحات الصغيرة المتناثرة في الصحراء قد شاخت ولم تعد تمنح ماءها بسخاء كما كانت. ربما رثى الشيخ لحاله فسمح له ببناء "الخُصّ" بالقرب من الغابة الصغيرة؛ ربما رق قلبه عندما عاين هيئته الرثة، شعره الأشعث، قدميه المطرزتين بشقوق تشبه شقوق الأرض العطشى. ربما نظر في عينيه فرأي - ببنور بصيرته- كل الأحلام المجهضة والكوابيس التي أرقت لياليه منذ أن فقد أباه في سجن المدينة البعيدة مصاباً بالتهاب رئوي.

***

انبلجت رشيدة، ذات يوم، بنورها الهادئ، كي توقف نزف حياته. لتمنحه انتصاراً صغيراً طالما اشتاق إلى حدوثه. لقد افتعل مصادفات عدة كي يلتقيها في أزقة البلدة مسربًا إليها قطرات من فيض مشاعره. قطرات من ماء بارد تسقط على أرضها الجدباء واحدة تلو الأخرى. بدت أرضها في أول الأمر قاسية وعصية على المحراث. كانت قد فطنت إلى مبتغاه فأضحت تتجاوزه بلا إشارة موحية.

صامتة تمر، لكن جسدها كان يحمل نداءه الخاص. إن ذلك لم يخف عليه. كان يراه واضحًا في تبدّل قسمات وجهها، انبساط أساريرها،

دلال خطواتها، وطريقة تمايل جسدها، والأهم من ذلك كله، كانت تلك الرائحة التي تنبعث من ذلك الجسد الأنثوي المتعطش للقاء. عندئذ يخفق قلبه كما تخفق تلك الرايات الخضراء الموفوعة فوق أضرحة الأولياء. لم تكن تتحدث إليه، لكن لا ضير، فالطبيعة بكماء ولا تتحدث، لكنها تنصت جيداً وتمور الأحداث داخلها كالبركان فتثمر ما يعد دليلاً قاطعاً على رفضها أو قبولها، ارتياحها أو اشمئزازها. هكذا كانت رشيدة تجتر كلماته وتبلعها بينما تفور الأحاسيس داخلها.

عندما كان يداهم باب بيتها في أويقات المغرب المتعددة التي تلت ذلك اللقاء، كان يلاحظ ذلك البريق الواضح في عينيها، يخرج لسانها من مكمنه وتنطلق حنجرتها تشكو بخل الزمان وخبث الأيام.

مصحف زينب

-١-

فرش الليلُ غطاءَه الكثيف فوق الواحةِ وبدأ يشُق طريقَهُ زحفًا بين التلال ليتوغَّل في المساحات الصغيرة التي تُركت بين البيوت والزوايا ومنعطفات الأزقة. عند هبوط العتمة، يتحوَّل جسده كله إلى أذنين تذوبان في الصمت المطبق وتتشربان أقل همسة بينما بيوت الواحة غارقة في نعاسها. تنصب العتمة فخاخها، متخذة لنفسها أماكن مريحة في الأركان والمنعطفات.

يسيرُ في حذر. يستشعر قلق الجدران، ويسمع تنفُّسها الرتيب بينما يدبُّ بقدميه الثقيلتين في الأزقَّةِ والدروب الخالية. يزداد قلقه وخوفه كلما اقترب من الهدف. ليست هذه هي المرة الأولى التي يُقدم فيها على فِعْلة كهذه، لكن الأعراض ذاتها تنتابه: تدفُّق شريط ذكرياته حاملًا كل الانتهاكات السابقة، تسارُع نبضاته وتشنُّج عضلاته، وتحفُز جسده للانقضاض في أية لحظة، ناهيك عن اجترار اللحظة الكابية التي جاءه فيها خبر موت أبيه، في ليلة شديدة البرودة.

هكذا كان، وكذلك سيظل؛ وحيدًا ومنبوذاً، يشبع مرة ويجوع

مرات، فيمضغ العُشب، ويصيد الطيور، ويحترق جوفه من تدخين الشيشة، منتظرًا أن يمنَّ الله عليه بعملٍ يسد به جوعه.

اقترب "جُنَيد" مثبتًا ناظريه على ذلك الحارس الجبَّار الذي يستقر مطمئنا في كيس من قماش أبيض، مُشبّع بالغبار ومحمولًا على عصًا من الجريد الجاف. يقف منتصباً فوق السطح إلى جوار صومعة من الطين مخصصة لخزن الغلال. انهمر داخله وابل من التساؤلات وكل تفكيره صاعدًا نحو السماء. كان موقنًا أن الله يرقب كل خطوة يقترب فيها من كتابه المقدس، بل ويعد عليه أنفاسه. هل يقف الرب الرحيم حائلًا دون حصوله على حُفنتين من القمح؟ كان الجوع يقرصه، يدفعه في ظهره، فيتقدم متذكراً أن رحمة اللهِ تغلب عقابه. إن حمله الثقيل يشده إلى الأرض ويبعده عن السماء، ذلك الحمل المتمثل في آلامه التي ورثها عن أجداده الذين ارتاحوا في بطن الأرض، تاركين له عار امتلاك شجرة بلا جذور.

كان مترددًا متوجسًا: "هل ستعاقبه السماء على جرأته الزائدة؟". لديه معرفة سابقة أن هذا المصحف المحفوظ في كيس القماش الأبيض ـــ والمعلق كراية فوق سطح بيت الخالة "زينب" منذ سنوات ـــ لم يوضع بهذا الشكل إلا بغرض درء الشر وترهيب الأشرار لو سولت لهم أنفسهم التقدم نحو صومعة الغلال التي تنتصب فوق سطح البيت، ذلك البناء الاسطواني الشكل الذي يرتفع قدر قامة الرجل، ذو فتحة

صغيرة مسدودة بقش. إن أبسط معارف جنيد تخبره بأن الله موجود منذ الأزل وآثاره ملموسة وبارزة لكل ذي لُب، لكن ذلك لم يردع المخطئين يوماً عن ارتكاب خطاياهم.

تقدم مرتبكًا، خائفًا، وقائلًا في نفسه "إن الله موجود داخل ذلك الكتاب، وبلا شك، سيدافع عن كتابه، وسيحمي، أيضًا، كل ما وُضِع الكتاب لأجله". كانت زينب تتباهى بين جاراتها بأنها تترك أبواب بيتها مشرعة وتنام مطمئنة غير آبهة بأولئك اللصوص الذين أخرجهم الجفاف ونقص الغلال من جحورهم. أولئك اللصوص الذين سيسخطهم الإله بقدرته إلى حمير وقردة، إن هم فكروا، مجرد تفكير، في سرقة بيتها.

لا شك أنه كان يموت جوعًا، وتدفعه غريزة البقاء في ظهره دفعًا، بينما تتراقص أمام عينيه ملامح المرأة التي قرر أن يسرق من قمحها. إنها المرأة الوحيدة التي عطفت عليه من قبل، وهشت في وجهه، بينما هو الآن يسرقها، هي دون غيرها؟ آخرون ابتسموا في وجهه ومنحوه من أقواتهم أيضًا، لكن السنوات قد أنضجته بما يكفي ليميز الخبيث من الطيب، أولئك الذين ما ابتسموا في وجهه ابتسامة حقيقية ولو لمرة واحدة برغم معرفتهم أن الله الذي يخشونه يمنح جزيل العطايا على الابتسامات التي تُلقَى في وجوه الآخرين دون أن تكلف شيئًا.

نظر مليّاً في النجوم، ورأى أنه يتحتم عليه الآن أن يعتاد هذه الطريقة

في العيش. نكَّس رأسه ثم ثم تذكَّر أن رحمة الله واسعة. شعر بشيء ما في قلبه، غصّة مؤلمة أو ما شابه ذلك. أغمض عينيه هامسًا: "يا رب". ثم وبَّخ نفسه، لأنه كاد أن ينسى أن هناك رب يسْتُره ويحميه.

هل أخافته السماء عندما نظر إليها فوجدها خيمة سوداء غامضة؟ لا بد وأن الأفكار قد دارت برأسه فرأيى المستقبل غريباً، والماضي جيفة متفسخة، دوامة من الذكريات والأحلام التي تنبثق من ضوء نجومها صور وأطياف أيام مضت. في تلك الليلة، تطلع كثيرًا إلى السماء، ورأي نجمة تهوي أمام عينيه بسرعة مهولة نحو مصيرها الذي لا تعرفه. نجمة كانت منذ لحظة تضيء فتضيف جمالًا وبهجة للحياة، نجمة ميتة، انسحقت في ظلمة الفراغ.

ثمة أشياء كثيرة كانت بالنسبة له مدعاة للسخرية منذ مجيئه إلى الحياة، مرورًا بصعوبة التخلي عن ذلك الإرث الذي تركته له عائلته الصغيرة؛ تلك التركة من التشرد والضياع في بلاد الله وذلك العجز المطلق في مواجهة قسوة العيش. كان يقف متطلعًا إلى السماء ـــــ في كل مرة يمد يده فيها ليسرق ما يتقوَّت به ـــــ كمن يقف خلف باب موصد آملاً أن يُسمح له بالدخول.

كان قلقاً حائراً تدور به الدنيا بينما يحاول أن يوفق بين شعورين متناقضين. كان لسان حاله يقول: يا إلهي، تعرف أن الجفاف يعتصر الحقول ويمتصّ المياه من باطن الأرض التي اتسعت شقوقها، فاشتاق

عبيدك إلى رائحة الطين. اسمح لي بأن آخذ ما أسُد به رمقي. إن القليل من طعام هؤلاء لن يؤذي أحدا. هل تسمح لي؟

-٢-

لم يذق جُنَيْد مرارة السجن، لكنه تجرع مرارة الوحدة منذ غياب أبيه الذي كان يردد على مسامعه كلامًا سمعه بدوره من الشيخ "أبو العيد" أثناء فترة إقامتهما في واحة "عنقيش" بأن الله هو صانع الدروب وهو المتكفل بوضع أقدام الخلق عليها. كان البريّ يؤمن في قرارة نفسه بأن الشيخ أبو العيد لا يخلو من مس شيطانٍ أو من جنون، لكنه، منذ أنزله الشيخ ضيفًا عنده وأكرم مثواه، وهو لاً يفتأ يكرر كلامه ويصدقه على طول الخط، ربما لأنه كان يخشى أن يخسر ضيافة الشيخ وكرمه الزائد إن هو عارضه أو كذبه. كان جُنيد حينئذٍ فتى يافعًا، لكنه لم يفطن إلى ما كان يكرره أبوه، إلا بعد أن اشتد عوده، وبدأت دروب الحياة تتضح لديه. فكان يسمع الغث والسمين وما لا يعجبه يضرب به عرض الحائط.

عندما علم بموت أبيه في السجن، أحس كأنما فقد ساقيه. لم يغادر كوخه الصغير لأيام. زاره أهل الواحة في مأواه، وشدّوا على يده، لكنه كان يراهم كأشباح، لا يدري متى جاءوا ومتى غادروا. لفَّه ضباب حزن كثيف، بيد أنه ظل طموحًا، مُصرًّا أن يحافظ على تلك الشُعلة التي تتدفق في أوردته بعد أن اندثرت عائلته المتمثلة في أبيه.

جاؤوا كلهم في تلك الليلة العاصفة. كانت الريح تعوي، ضاربة

أغصان الأشجار في الغابة الصغيرة، ومصدرة أصوات كالنواح. جاءوا للعزاء، حاملين فوانيسهم التي كانت تبعث حولهم ضوءا شحيحًا. جاءوا يجرّون أقدامهم كأشباح، والريح العاصفة تعبث بأطراف ملابسهم. تحلقوا حوله لدقائق. ألقوا في وجهه عبارات تحثه على الصبر. تأملهم في تركيز شديد ورأى أن العيون التي تنظر إليه، تصطنع الحزن، بيد أن ملامح الوجوه تشي بغير ذلك. كان بوسعه أن يقرأ على صفحات وجوههم ما يضمرون. شعر وقتئذ كم هو وحيد وتعيس في هذا العالم.

تنهد بارتياح عندما نفضوا مؤخراتهم واستداروا، منزلقين في صمت عبر الدروب التي رسمتها لهم السماء. تابعهم وهم يستلمون الدرب الضيق، وفوانيسهم الشاحبة تتأرجح في أيديهم، بينما الريح العاتية تدفعهم في ظهورهم. سمعهم وهم يختلفون حول كيفية موت أبيه عاجزًا ووحيدًا في سجن المدينة البعيدة. لقد سمع قول أحدهم بأن موت أبيه بتلك الطريقة كان جزاءً مستحقًا. انطلقت ضحكاتهم مدوية، بينما كانت أضواء فوانيسهم تتلاشى مع انحناءات الدرب. ضحكاتهم المخزية جرفتها الريح خلفهم فلم يعد لها أثر، ولا لهم أيضًا. لكن الأثر الوحيد هو ذلك اليقين الذي ترسَّب في أعماقه صارخًا في وجهه "يا لك من منبوذ". لقد كرههم بالفعل، وجاهر لنفسه- لأول مرة- بكرههم.

مات أبوه جالسًا القرفصاء ـــــ كما أخبروه لاحقًا ـــــ، ملتفا بملاءة لا تُسمن ولا تُغني من برد، في زنزانة صغيرة لا يزيد عرضها

عن سبعة أقدام وطولها يزيد عن ذلك بقليل. مات ذات ليلة شديدة البرودة، في زنزانة دائمة الظلمة، مستندًا بظهره إلى الجدار. مات جالسًا على أرض حجرية مصمتة إلا من ثقوب صغيرة اتخذتها الصراصير مأوى وملاذًا.

حضور الريح القويّ، بث الرعب في قلبه بعد أن أُوقع المكان في دوامة هائلة من الضجيج. كادت الريح أن تقتلع "الخُص" الصغير من مكانه، ودأبت على صفق الباب في حركات سريعة متتابعة، بينما الأغصان اليابسة وشجيرات الرطريط ونباتات العاقول الجافة، تتطاير في الفضاء صانعة دوامة كبيرة. مخلوقات ميتة تدور فوق رأسه. كانت تلك النباتات، ذات يوم، خضراء يانعة، تبعث البهجة في النفوس. ها هي الآن تدوم فوق رأسه كأشباح تدفعها الريح كيفما اتفق. والأشجار التي كانت تحميه تتطوح كمخلوقات عملاقة سابحة في دوامات من غبار. تلك الدوامات التي طالت الخص فتطوح معها وارتفع نثار قش الأرز - المحشوّ في ثقوب السقف- متخذًا شكل سحب صغيرة فوق شواشي الأشجار.

شعر لأول مرة، بالوحدة والخوف فقد أمست حياته كلها ذكرى غابرة. كل الأحداث تحوَّلت إلى ماض، حلم، أو وهم، برغم أن الرماد الذي خَّلفه في الموقد الطينيّ، يؤكد أن ثمة حياة كانت هنا! إنه غارق تماما، في شَرَك المستقبل، والله وحدهُ يعرف أين ستنبت شجرته؟ وبأي

يدِ سوف تُغرس؟ ومتى ستأتي أكلها؟

شعر بأن الخوف الذي اعتراهُ في تلك الليلة التي امتدت زمنًا كونيّاً لا نهاية له، خوفًا جديدًا عليه. ربما لأن داخله كان مشحونًا ومغلفًا بالوحدة، بعد أن أمسى كجذع شجرةٍ خاوٍ.

في ضوء النجوم، استطاع أن يتبين الحركات الغريبة لحماره الأسود المقيَّد إلى جذع شجرة قريبة من الخُصّ. في أول الأمر، كان الحمار يقف جامدًا، مثبتًا ناظريه باتجاه نقطةٍ ما أمامه. أذناهُ منتصبتان ومضمومتان إلى بعضهما كأنما يشدّهُ صوت خفيّ، ثم ما لبث أن فزع مندفعًا للأمام. اندفع في قوة، ولمَّا كبحه القيد؛ انكفأ على الأرض إلا أنه لم ييأس، ولم يكف عن محاولة الهرب بتلك الطريقة الغريبة.

تأكد جُنَيْد أن ثمة أمرًا مريبًا يحدث في الجوار، وانبثق أمام عينيه، في الحال، مشهد كان قد توارى إلى ظلمة الذاكرة عندما كان يجلس مع أبيه أمام النار، وابتدأ الحمار يفعل مثلما يفعله الآن. تنبه البَرّيّ، فهب من جلسته واقفًا، مستعدا، باحثًا، بنظرات زائغة، عن أي سلاح يصلح لمواجهة خطر لم يعرف كُنهه بعد. قال، وهو يتحرك في مكانه مُبدلاً بين قدميه كمن يقف على نثار أشواك: الحيوانات أكثر المخلوقات شعورًا بالخطر. ثم التفت إلى جُنَيْد: آتني بالعصا. في قفزة واحدة كان داخل الخص. لقف العصا كأنما طارت إليه، ثم بقفزة أخرى كان يقف أمام أبيه مانعًا عنه الخطر الذي لا يعرف ما عساه يكون.

ألقى البري كومة حطب كاملة في النار فتعالت ألسنتها حتى بلغت مستوى قامتيهما وأضاءت بقعة مستديرة واسعة حولهما. من خلال الضوء، لمحا زوجًا من الضباع يتقدمان نحوهما في حذر، ثم توقفا على بعد نحو عشرين خطوة. أحس جُنَيْد بشيء من الشفقة تجاههما، فقد لاذا بالفرار بعد أن لوح لهما الأب بقطعة من الحطب المشتعل وخطا نحوهما خطوات ثابتة. أقسم جنيد أنه رأى في أعينهما نوعًا من الاستجداء وقال إن الجوع والهزال ظاهرٌ عليهما. قال الأب إن العناية الإلهية وحدها قد حفظتهما ثم أوضح لابنه أن الضباع تخشى النار.

فرَّ جنيد إلى داخل الخُصّ وأحكم غلق الترباس الخشبيّ. استلقى على فراشه كجنين، محتويًا رأسه بذراعيه وضاغطًا على أذنيه. أحس- عقب فراره بتلك الطريقة- بالخزي. لم يفعل شيئًا سوى أن حبس نفسه في الداخل. لمَ لم يواجه الخطر كما علمته الحياة.

إلا أن تلك الليلة كان خوفها جديدًا عليه. أحس ـــ بينما الريح تعوي ـــ بقشعريرة تسري في كل بوصة من جسده، وظلمة غريبة تتراقص أمام عينيه، وتلك الطريقة المستفزة التي عامله بها أهل الواحة، ثم ذلك الدويُّ الهائل الذي اخترق أذنيه. كان قد سمع ما حكاه الأهالي عن ذلك العفريت الذي لا يفتأ يضرب بمطرقته الضخمة حجر الطاحونة القديمة التي تبعد عن مأواه أقل من مائتي خطوة. لم يكن يؤمن بالأشباح ولا بالخرافات التي طالما رددها الناس في تلك الواحات

التي حط رحاله فيها مع أبيه. يشعر أن قناعاته ستتغير كما تغيرت أشياء كثيرة في حياته. هل لهذا العفريت وجود بالفعل، رغم أنه ما من دليلٍ ملموس على وجوده؟ لكن، لماذا اخترق صوت ذلك الطرق أذنيه، ولمَ فزع الحمار هكذا، كما فزع ليلة هبوط الضباع إلى الواحة؟ إن رأسه تؤلمه. أغلق عينيه وتكوَّر على نفسه كجنين. حاول أن يعزل نفسه عن العالم. كان صوت المطرقة الرهيب يتباعد، بينما يهتز داخله دفء ذلك الضوء الذي يذكّره دائما أنه ما زال حياً.

قرر جنيد ـــ بعد أن لاذ بفراشه في تلك الليلة ـــ الرحيل إلى أي بقعة أخرى من أرض الله واسعة، ثم تراجع عن قراره في الصباح بعد أن هدأ وفكر وعرف أن الدنيا كلهاـــ بالنسبة إلى طائر مثله ـــ قفص كبير. أيقظه ضوء الشمس الذي ضرب جفنيه بعد أن تسرَّبَ إلى الداخل، مخترقًا الفرجات الضيقة بين جريد الخُصّ.

***

في كل واحة حط رحاله فيها، كان الناس يعاملونه كأحد الدخلاء غير المرحب بهم. هو لا ينكر مدى طيبة البعض وحسن معاملتهم. وفي المقابل كان البريّ يبدو طيبًا بشوشًا إلى أقصى مدى، إلا أن "الطبع غلَّاب"، كما يقولون. كانت طباعه تتغلب عليه عندما يرى شيئًا يعجبه ولا يهدأ له بال حتى يسرقه.

تجبره تلك القوى الغامضة- التي تسري في عروقه، وذلك النداء

الخفيّ الذي يمتلك عليه حواسه كاملة- على سرقة ما يحب. هو لا يعد نفسه لصًّا، ففي كل مرة تمتد يده فيها كي تسلب شيئًا، يدوّي في رأسه صوتًا يقول: "فلأفعلها الآن لآخر مرة" وبعد أن ينجو بفعلته ينكر على نفسه ما ارتكب، ثم ما تلبث الأيام أن تُنسيه ما عاهد نفسه عليه.

رغم تلك البهجة التي كانت تؤثر في مكنون مشاعره عند ملاطفة الشيخ "أبو العيد" له. لم يعامله كغريب، لكنه لم يصن العهد ولم يحفظ الإحسان. في آخر المطاف، سرق صُرَّة نقود الشيخ الذي كان يحلو له أن يناديه: "تعال يا شيخ برّي. اذهب يا شيخ برّي. أفعل كذا يا شيخ برّي"

أقام البَرِّي عامًا كاملًا في ضيافة الشيخ أبو العيد؛ يأكل ويشرب وينام، ويهتم بكل ما يسمعه من الرجل ويُعجب به بعد أن عهد إليه برعي الأغنام، فكان يخرج بها صباحًا إلى المراعي المحيطة بالواحة ولا يعود إلا بعدما ينكسر الظل.

***

كانا يجلسان أمام الخُصّ. تصطدم نظراتهما بجذوع النخل ثم ترتد زاحفة على المدق الرمليّ المتعرج، حتى تستقر ثانية على ألسنة النار التي تتراقص بينهما. لم يفكر البريّ يومًا في امتلاك بيت من الطين مثل الناس لأنه كان يعتقد أن أسقف البيوت تسلبه حريته التي كان يعتبرها أعز ما يملك. وقد أخبر ابنه ذات يوم بأنه يكره أن يظل حبيس غرفة محكمة الجدران طوال العمر، وأنه يتمنى أن تحين منيّته تحت سماء الله، لا يفصله

عنها سقف ولا تحيط بها الجدران.

-٣-

عزم جنيد على سرقة بعض القمح من صومعة الخالة زينب، وكان قد زار المكان ـــــ قبل الليلة المحددة ـــــ في ضوء النهار. سيتعين عليه أن يصعد النخلة الملاصقة لبيتها، ثم يقفز على السطح في سهولة، ودون أدنى ضجة.

علَّقَ "القُفَّة" بحَبْلٍ في كتفه وصعد حتى مستوى السطح. تشبث بجريدة خضراء باليدً اليسرى وارتكز ثقل الجسد على القدم اليسرى أيضا، فكان شقه الأيمن حُرا، طليقًا في الهواء. مَدّ قدمه اليمنى فكانت على السطح، وبقفزةٍ خفيفةٍ مُتَمَكِّنة كان واقفًا أمام الصومعةِ على قدمين ثابتتين. وقف حائرًا تتنازع رأسه أفكار شتَّى، لكنه، في الأخير، قرر أنَ يأكل، متناسيًا الإله، ومغذيًا رغبته النابتة حديثًا في الانتقام من الآخرين الذين انكشفت مشاعرهم الحقيقية بعد موت أبيه.

وقف منصتًا لتلك الأصوات التي يسمعها بالكاد، لكنه يشعر بها جيدًا، كأنها أصابع رقيقة تمتد لتداعب أذنيه. إنه صمت الليل الكثيف وقد ألقى داخله أصوات الكون: هسيس الأشجار، نقيق الضفادع الذي يزفه الهواء إليه من طرف الواحة، وأصوات متداخلة لحشرات طائرة وهوام. وكأنما سمع تحرك خطوات بالأسفل، فمال برأسه منصتاً. سمع

أنيناً خافتاً لباب يُفتح. نظر إلى السماء خائفاً وراجياً ألا يفتضح أمره هذه المرة. وقف ساكناً كأنه جزء من تلك الأواني الفخارية المرصوصة فوق السطح. مرت اللحظات كعُمر إلى أن أيقن أن كل شيء على ما يرام.

أفتر ثغره عندما اكتشف الخدعة، ثم ضحك ضحكات خفيضة متتابعة هزت أعماقه وجلجلت داخل قفصه الصدري. التبست عليه المشاعر وتداخلت الأحاسيس. يعرف أنه إذا ما ضحك لم يكن أحدٌ في العالم ليضحك تضامنًا معه. وقف صامتًا رافعًا رأسه إلى سواد السماء. تراءى له أهل الواحة وقد اصطفوا أمامه في طابور طويل لا يكاد يرى نهايته. يصطفون رجالًا ونساء، وقد تمكن منهم الجوع. مواعينهم الفارغة في أيديهم. ينتظرون أن يكيل لهم، يمنحهم من غلاله ما يسد رمقهم. ها هو يقف شامخًا، برأس مرفوعة وأعين ثاقبة كأعين الصقور التي تحوم حول فريستها. يرى أعينهم مثبتته على يديه، متأهبين لإشارة البدء.

كانت الخالة زينب أول من ابتكر تلك الطريقة في حماية الغلال دون مجهود، معتقدة أو محاولة أن ترغم الآخرين على الاعتقاد بأن تلك المنطقة المعلق فيها الكتاب المقدس ستكون حتما في عين الإله وفي بؤرة اهتمامه. وضعت كتاباً قديماً ــ وجدته مدفوناً بين حاجيات وكراكيب ورثتها عن أبيها ــ فوق الصومعة لتخدع الناس وتوهمهم أنه كتاب الله. الآن، انكشفت الخدعة ــ التي طال أمدها حتى أضحت واقعاً واعتقاداً ــ

أمام ناظري جنيد الذي أيقن أن الإله لن يرضيه ما فعلت زينب، لذا فإن صومعة القمح هذى بلا حارس! لقد بات يؤمن في قرارة نفسه بأنه لا يوجد ما يدعو للبهجة في هذا العالم سوى الفرح بتلك الأشياء التي يستطيع الفرد انتزاعها انتزاعًا؛ حتى لو تطلَّب الأمرُ اقتلاعها من جذورها ولا يهم، عندئذ، هل سيطول الاستمتاع بها أم سيقتصر على لحظة عابرة.

ضحك، لأن الإله خصَّهُ وحدَهُ باكتشاف الأمر، هو تحديدًا دون الآخرين!! ثمة حكمة في أن يقع الاختيار عليه. كان ذلك الأمر يهمّهُ كثيرًا. تلك الكلمات دارت مع حجر الطاحونة الكبير، الذي يدور في رأسه دائما وأبدا: لماذا تختصني العناية الإلهية باكتشاف الأمر؟ يبدو أن مسألة إطعامي أو استمرار جوعي مرهون الآن بتدخل الله، ولا أدري إن كان يرضيه أن ينقذني من ألم الجوع الذي يلازمني منذ ساعات طوال أم لا.

أغلب الظن أن الله سيتولاه بعنايته وإلا لما خصَّه باكتشاف حيلة "زينب" التي انطلت على الجميع. قال الشيخ أبو العيد: إِن كل ما يحدث لنا في حياتنا، من شرور ومصائب يمكن أن يمنعه الله من الحدوث بطريقة واحدة؛ بكلمة (كُن)، وكل ما لا يحدث، من خير يمكن أن يسمح به بالطريقة نفسها أيضًا. لا شيء في هذا الكون متروك للصدفة. إن العناية الإلهية هي تحقيقٌ لإرادة الله.

تجرأ جُنَيْد في النهاية على تمزيق كيس القماش الأبيض، الملفوف به المُصحَف. تفتت الكيس بين يديه القويتين بعد أن أكلته الشمس فلم يجد- بعد أن فحص محتواه جيدا- سوى أوراق قديمة مطويَّة بعناية، وقد تحللت تقريبًا بفعل تقلبات المناخ متأثرة بكومةٍ من ترابٍ ناعمٍ حشرتها الرياح بين الأوراق.

بكثير من التعجل، وضع "القُفة" في مواجهة الثقب الصغير ثم نبش سُدَّة من "الليف" كانت المرأة الطيبة تسُد بها الفتحة الضيقة فانساب الحَبّ في ماعونِهِ محدثًا صوتًا هادئا كان يرى أنه أحب الأصوات إليه. أعاد السُدَّة في مكانها بعد أن قاربت قُفَّتَهُ على الامتلاء. ضم مقبضيها وربطهما بالحبل، الذي لَفَّ بعضه على يده اليمنى ثم رفع القفة باليد الأخرى ليدليها لأسفل بينما يرخي الحبل شيئا فشيئا حتى وصلت إلى الأرض في منتهى الهدوء.

***

عندما كبر، أيقن أنه غريب؛ لا يشبه عامة الناس، متشرد على الدوام، دخيل وغير مرغوب فيه. إنه من طينة أخرى وقومه الرُّحَّل فرقتهم دروب الحياة فتناثروا وضاعوا في البريَّة الواسعة. الآن فقط، انتبه إلى أن اسم أبيه (البّرّيّ) الراحل أبدا، لا ينتمي إلا إلى البرية، أبوه الساكن على ظهر الدروب لا يعرف لنفسه هوية، ولا ينتمي إلى بقعة محددة. لقد آمن ـــــ ربما مجبرًا ـــــ بأن الكرامة الحقيقية تكمن في الحرية الكاملة

التي يمارسها وفي الطريق الذي يرسمه بيده: يرسمه مستقيماً يؤدي إلى كل الدروب في الوقت ذاته، يرسمه بلا انحناءات.

يبدو له الانتماء إلى بُقعة ما من الأرض قيد أبديّ لا يمكن الفكاك منه. ربما كان بقاء الإنسان ضاربًا بجذوره في مساحة محددة من الأرض لا يبرحها، فكرة بائسة لأنه قد يهلك في سبيلها حتى وإن كانت لا تستحق بعض ذلك العناء.

تنهد بارتياح، عندما دارت في رأسه تلك الأفكار. شعر أخيرًا بامتنان لأبيه الذي لم يملّ من حشو أذنيه بكل ما سمعه. على الأقل يستطيع الآن أن يقنع نفسه بما يتفق مع حياته، فذلك الشيخ كان محقا في قوله: إنه لا يوجد خير محض، ولا شر محض، لأن كل شيء في الحياة يمكن أن يكون ضارا ونافعًا، محزنًا ومفرحًا حسب كيفية استعدادنا ومدى تقبلنا له.

هِبَة الرحمة

غادرت الشمس كبد السماء ومالت قليلاً ناحية الغرب، عندما ظهرت "عُشَّة" في بداية الزقاق من الناحية البحرية. امتدت ظلال الأشجار، المواجهة لصف البيوت، على تراب الشارع الضيق، ثم انكسرت لتغطي أجزاء متفرقة من الجدران بينما تداخلت مساحات الظل مع بقع متناثرة من ضوء الشمس. كانت النسوة الجالسات في ظل شجرة المانجو الضخمة (المواجهة لبيت "أبو هشيمة") يتابعنها بعد أن تخطت بوابة البيت، حاملة على رأسها صينية نحاسية كبيرة مغطاة بقطعة قماش بيضاء خفيفة. كانت نظرات النسوة المتجهة نحو تلك القادمة تُلقِي على تراب الشارع أسئلة تدور بخاطرهن: إلى أين تذهب "عُشَّة" بذلك الطعامِ؟ شمّت "وجيدة" العمياء رائحة الطعام التي زفَّها الهواء ناحيتها فأخذَت نفساً عميقاً محاولة تخيل مذاق الطعام. كان زوجها "عبد الفضيل" على قيد الحياة عندما فقدت نظرها بعد حُمى أصابتها.

كانت عُشَّة تحث الخطى في نهر الشارع الضيق عندما تناهى إلى مسامعها وقع خطى تقترب منها. كان طفل في التاسعة من عمره قد لحق بها. التفتت للخلف، فلمحت جدته تقف على باب البيت وقد اتكأت بذراعها الأيسر على متراس الباب. ما أن تأكدت أن حفيدها قد لحق

بأمه حتى استدارت وهي تعدل من وضع شالها القطيفة الأسود، فوق رأسها، تاركة الباب مفتوحاً عن آخره، دون أن تنتبه للنسوة الجالسات في ظل شجرة المانجو. كانت الجدة قد خطت خطوات واهنة بطيئة للداخل. تشبث الطفل بذيل ثوب امه مثل "قرادة" التصقت بضرع بقرة. يشد طرف الثوب إلى الخلف فيطاوعه الثوب المزركش، ضاغطاً على صدر الام الناهض ومبرزاً قوامها الممشوق بينما شالها القطيفة الأحمر ــــــ رغم أثر السنوات فيه ــــــ يضفي على وجهها الأبيض المستدير حُسناً على حُسن.

النسوة اللواتي سافرت بهن دابة العُمر إلى قُرب نهايته كن يتأملنها فتتفجر داخلهن فورة الحياة المزدهرة: جسدها الممشوق مكتمل الأنوثة، المنديل متعدد الألوان الذي تعصبه على رأسها وثوبها الأخضر الموشى بورود حمراء وصفراء كبيرة، كفراشات الربيع في الحقول الخضراء الواسعة. تمشي الهوينى، بينما تسقط أشعة الشمس (المتداخلة في الظلال) على عينيها. ترخي أهدابها الطويلة بين الحين والآخر، تنعكس عليها أشعة الشمس فتلمع مثل معدن نفيس. يبدو وجهها (الذي يحمل ابتسامة لا تغيب) مُريحاً ومُحَبباً للجميع.

تمشي، وابنها يشدها إلى الخلف في عصبية غريبة. استدارت عُشة ناحيته قائلة: "عاود البيت يا ولد". قال الولد "أمين" متعصِّبًا وقد ضيَّق من حدقتيّ عينيه: "لا، جي معك". رمته بنظرة قاسية لم يلق لها بالاً

وعندما وجدته مصمماً، مضت في طريقها وهي تتأفف. مشى يتقافز حولها وهو يهز رأسه ويتلفت هنا وهناك موقناً أنه كسب المعركة.

فُتِحَت بوابة بيت أبو هشيمة، وأطلت منها "مُنيرة". نظرت في اتجاه النسوة اللواتي جلسن ينتظرنها في ظل شجرة المانجو الباسقة أمام بيتها. تقف الشجرة بظلها المديد عند التقاء ذلك الشارع المُترب وبداية الزقاق الضيق الذي يمتد غرباً بين بساتين الفاكهة والنخيل. ذلك الزقاق الذي لا يزيد عرضه عن متر واحد، يمتد على شاطئيه سياجان من جريد النخل.

يُستخدَم الزقاق كمجرى للماء إضافة إلى وظيفته الأصلية. فإذا ما مرت فيه المياه لري الأراضي التي يؤدي إليها اضطر المارة إلى تشمير ملابسهم، ثم خاضوا في الماء. النساء يرفعن أطراف أثوابهن أيضا عندما يضطررن إلى المرور وهن في طريقهن إلى "زيارة المقابر فتصبح تلك الأجزاء العارية هدفاً للنظرات التي تصطدم بها مصادفة أو بنوايا مبيَّتة.

لن تُقدم امرأة على ملء جَرّتها من ذلك الزقاق، لأنهن يعتقدن أن أبناء الجان يلعبون في مجاري الماء ويبولون فيها. أما الماء الذي يخرج من فوهة النبع فلا يقدر عتاة الجن أن يقتربوا منه إذ أخذ النبي سليمان الحكيم منهم ميثاقاً بألا يقربوا منابع المياه.

اشتدت الريح فثار تراب الشارع صانعًا دوامات صغيرة من الغبار الناعم، وتطوحت أغصان الأشجار، وارتطم جريد النخل محدثًا صوتا

مربكًا، بينما تساقطت أوراق الأشجار الجافة وهي تدور وتتلوى في الهواء لتلحق برفيقاتها في الأسفل. تجاوزت منيرة باب بيتها فاصطدم وجهها بهواء ساخن محمل بالأتربة بينما التفت أوراق الأشجار الجافة في دوامات عشوائية من حولها وأسفل قدميها. وَضَعَتْ شالها الأسود على عينيها وجعلت تدعكهما وهي تصب اللعنات على كل ما يخطر ببالها من أشياء. كانت تهرول نحوهن في ثوبها الأسود الكالح، قابضة بيدها اليسرى على حزمة صغيرة خضراء من أغصان الأشجار بينما تحمل سقاء الماء الفخاريّ فوق كتفها.

في الوقت ذاته، كان أمين يركب حماره (عصا طويلة من جريد النخل الجاف) ويوجهه يمنة ويسرة، يجري به أمام أمه، ليريها قدرته المتناهية على التحكم في دابته، صانعاً خلفه خطاً رفيعاً من الغبار. صينية الطعام فوق رأسها، تقبض عليها بيمينها، بينما تلم بيدها اليسرى طرف ثوبها الواسع، فيظهر خلخالان من الفضة، يحيطان بساقها الملفوفة، ويصدران رنينا رقيقا كلما اتخذت خطوة للأمام. تجلس "عزيزة"، ابنة "عتمان المجَبّراتي" ساهمة، تحاصر تلك القادمة من الجهة البحرية بنظرات متيقظة، تتراوح بين الغيرة والإعجاب. استقام ظهر"عالية" زوجة "عشومة" عندما اقتربت عُشَّة، وتمنت أن لو تحط من أعلى كطائر، لترى ما تحويه تلك الوليمة، وإن كانت متيقنة أنها لا تزيد شيئا عما يأكل الجميع. من أين تأتيها الزيادة بينما يتناقص ماء النبع وتقل المحاصيل؟

وقفت منيرة إلى جوارهن تتأمل تلك القادمة التي تسبقها رائحة طعامها. أما "زهرة" زوجة "صبحي" فقد أنهكها الانشغال في محاولة الإمساك بالنمل الذي تسلل تحت ملابسها، وجعل يعض ساقيها. تَحُكُّهُمَا بأظافرها وتتأوه. تَتَحَسّس ساقيها بأطراف أصابعها، فإذا ما ظفرت بنملة طحنتها بين إصبعيها في غيظ، وهي تتأفف شاكية باكية بأن هذا النمل ليس له فائدة سوى التنكيل بالناس.

الحياة قاسية في هذه الواحة، وفيما جاورها من واحات. كل شيء يسير في صعوبة وبطء، لكنه يسير. فمساحة الأرض التي تمنح الأقوات قد تقلصت لما يقرب من النصف. حَشَد الفقر أعْوَانه لينزل ضيفاً ثقيلاً على أهل الواحات الذين تشتتت بهم السبل، لكنهم (على كل حال) يستطيعون تدبر أمر معايشهم. هم موقنون بأن الذي خلقهم لن يتركهم جوعى. أراض كثيرة جفت واتسعت شقوقها اشتياقاً للماء. هجم الجفاف على أطّراف الحقول صانعاً نصف دائرة ظلت تضغط لسنوات. جفت كل الأشجار المتاخمة لأطراف الحقول، وقُطعت حطباً للمواقد. يزيد زحف الجفاف ناحية الأخضر في كل عام، فتزحف خلفه الرمال لتنهش تلك الأطراف، بعد أن كانت الأشجار سوراً حصيناً يمنعها من الاقتراب.

رفعت "عالية" عينيها، لكن الصينية كانت شديدة البُعْد. لقد تحركت أمعاؤهن، حين استنشقت أنوفهن رائحة الطعام. ورثت عُشة عن أمها

مهارتها في الطهي، فإذا ما قدحت بصلتين في قطعة من الزبد انتشرت الرائحة في أرجاء الواحة، وتسربت من خصاص النوافذ، ومن "رواشن" الأسقف، لتتغلغل في الأنوف فيسيل لها اللعاب.

النسوة المتسربلات بالسواد، اللواتي كن يجلسن في ظل الشجرة، وقفن عندما تحركت منيرة وقد حملت كل منهن ما جلبته من أجل "هِبة الرحمة"، تلك التي يهبنها للأموات كل خميس: سَقَاء من الفخار مليئاً بالمياه، وجريدة خضراء من قلب نخلة، وبعض أغصان الأشجار، شرط أن تكون أشجاراً مثمرة. هي قائدتهن في تلك المهمة، كما أنها أشهر مُعَدّدة في المآتم، سواء في تلك الواحة الصغيرة أو ما جاورها من واحات. يتم استدعاؤها بالاسم عندما يطرق رسول الموت الأبواب، فتلبي مسرعة. تركب حمارها وتنطلق، لتعدد مناقب الميت ومحاسنه، حتى دون أن تعرف اسمه!!، والمعددات يرددن خلفها ما تقول.

إن مهمة زيارة المقابر ملقاة على عاتق النسوة العجائز دون غيرهن، حيث إنهن طاهرات على الدوام، بما أن دورة الحيض قد انقطعت لديهن.. لكنهن يستثنين "عزيزة" ويتعاطفن معها نظرًا لظروفها الخاصة، إذ أنها مطلقة ومثل تلك المهمة قد تسري عنها. إن عزيزة نفسها، لن تجرؤ على مصاحبتهن إلى المقابر إذا جاءتها الدورة، فقد ظلت راقدة في فراشها مدة شهر كامل لا تفعل شيء سوى الصراخ.. تتحرك شفتاها بكلمات غير مفهومة، تكررها باستمرار.

لم تكن تغفو في الليل إلا لحظات، تستفيق بعدها وقد جحظت حدقتا عينيها وتصلبت أطرافها، وارتعشت شفتاها وتمتمت بما لا يُفهم من الكلام. قالت إحداهن إنها اخترقت المقابر و"عليها الدم" أي دم الحيض، فتلبسها واحد من الجنّ السفليين. حدث ذلك بعد أن طُلقت بثلاثة أسابيع. هُن مقتنعات بأنها كانت شجرة طيبة في بيت زوجها، ثم اجتثت من جذورها، وبأن "عليّ" ابن "تُهامي" سيندم على هجرها إن عاجلاً أم آجلاً. لا تدري واحدة منهن السبب الحقيقيّ لطلاقها، رغم أنهن يعرفن تماما أن "عليّ" كان يميل إلى "هشيمة" ويحلم بالزواج منها. كان مستعدًا أن يلقي بنفسه عند قدميها كي توافق على الزواج منه. هشيمة التي تزوجت "مسلَّم" ابن "عشومة"، بينما كان مسلم يخطط للزواج من أخرى!!

هكذا هي الحياة؛ تترك الناس يتخبطون في غيهم ثم تقف لتتفرج.. حينما سمعت وجيدة العمياء بطلاق عزيزة قالت ما لم تقله امرأة في الواحة من قبل: "إن الرجال لا يفكرون إلا في أعضاء ذكورتهم".

حملن أفرع الأشجار على أكتفاهن، ومواعين الماء الفخارية على جوانب خصورهن (بحيث تصبح قاعدة "السقاء" أعلى عظمة الحوض الجانبية) هكذا يسرن مائلات لليسار قليلا، ليسمحن لقاعدة السقاء أن تستقر أعلى عظمة الفخذ اليمنى.

ألقت "عُشة" التحية وهي تبتسم فرددن في أصوات خفيضة. همست

منيرة: "إنتي شايفة روحك على بلوش إي؟" لكن "وجيدة" بادرتها: "أنتِ غلطانة وراكبك العيب من ساسك لراسك، البت دي طيبة وأصيلة".
منيرة ـــ التي نُقع لسانها في السم ـــ لم تهدأ حتى صفعت قسوة ردها وجه المرأة العمياء: "مَن يحامي (يُدافع) على الرّبعيّة (المعزاة الصغيرة) العرجا غير أمها؟ وعلى رأي المثل؛ اطعم البطن تستحي العين".

طأطأت وجيدة رأسها وظهر الحزن على ملامحها، لكنها لزمت الصمت. ربتت "زهرة" على كتفها، بينما تعالى نباح كلاب قادم من ناحية المقابر. اشتعلت عالية غضباً وارتفع صوتها: "اتق الله يا "شيخة"، إنتي إيش؟ لابسك جن؟". لم تجبها منيرة كما لم تنطق واحدة منهن، لكنهن تنفسن الصعداء وارتحن تمامًا إذ حظيت قائدتهن بما تستحق من رد.

انعطفت عُشة يسارًا لتدخل الشارع المؤدي إلى بيت "عبدون" ابن وجيدة العمياء، بينما انعطفت منيرة يمينًا، لتدخل "زقاق الماء" وبقية النسوة خلفها في صف واحد.

الضريح

-١-

قضيت شطراً من العمر

في معالجة الخيبة التي طوقتك بالسلاسل،

في محاولة انتزاع قدميكَ

من مستنقعات الانتظار المرير

...،

من أين لك الآن ببلطة

لتجتث بها شجرة الحلم

التي تطاولت داخلك

وعكرت صفو ركودك

وخنوعك في مواجهة الأيام

من أين لك بشفرة حادة تقطّع بها قدميك

إيه إيها الوحيد،

لم تترك لك الصحراء

سوى الرمل

والدموع.

تساءل في نفسه ــــ بينما كان يخترق أرض المقابر ــــ لماذا ينظر إليه الناس تلك النظرة المتوجسة؟

هو الذي يحاول جاهداً أن يوفر لنفسه حياة آمنة، تكفيه حاجة السؤال.

لم يسْتَجِدِ، ولم يطلب من أحد شيئاً يوماً.

يدبر أمور حياته جيداً، ويحبها على هذه الوتيرة.

يسير شاهراً جرأته في وجه أشباح الليل، يُداهِمُ سريعاً قبل أن يفطن إليه أحد، يأخذ ما يكفيه وينصرف مثل طيف، دون أن يؤذي أحداً. يظن أنه لا يُشْبهُ أحداً من أهل تلك الواحة التي سكنها، نزولاً على رغبة أبيه.

هل خُلق الإنسان ليفني جسده في العمل، ثم يأكل وينام؟ ألا توجد دوافع أو مُتع أخرى في الحياة سوى ذلك؟ وما المتعة في ذلك من الأساس؟ لماذا نعمل، طالما نستطيع أن نحصل على ما نريد دون عمل؟

ظلت تلك التساؤلات التي تدور في رأسه مثار اهتمامه؛ وتعطيه ــــ بحسب تفكيره ــــ إجابات مقنعة وحافزًا على مواصلة

الطريق وإقناع نفسه بأنه يختلف عن أولئك البشر. وكثيرًا ما أخبرته هواجسه بأنه يُحدث شيئاً مغايراً، يخترق رتابة الحياة، يَصْنع حدثًا، ربما التف حوله الناس، وانشغلوا به، وتناقلته ألسنتهم من واحة لأخرى، فيمسي بين ليلة وضحاها شخصًا صنع نفسه بنفسه، وربما ينسى الناس أصله وفصله.

***

يحمل "مِقْطَافاً" من الخوص فوق ظهره، بينما ينحدر قاصداً مقام الشيخ " سعد الله ". يحمل المقطاف أينما حل وأينما ارتحل. لم يره أحدٌ إلا وذلك "الوعاء" فوق ظهره. يسير منحنياً قليلاً، بينما مقبضي المقطاف في يده التي ترتاح على كتفه. في البداية، تساءل الناس عما يخفي داخله، وشيئاً فشيئاً لم يعد أحدٌ يتساءل، إذ أصبح جزءاً من شكله وشخصيته.

في تلك الظهيرة، كان قد عرج على مقام الشيخ يستظل به، بعد أن قضى سويعات النهار الأولى لا يفعل شيئاً سوى جمع جذور الشجيرات الجافة، ليستخدمها حطباً للموقد. تحيط الرمال الناعمة بالبناء من جميع جوانبه في شكل دائرة ما عدا الناحية الجنوبية لأنها تقع في ظل الرياح. لا تلتصق الرمال بالجدران مباشرة لكن ثمة مسافة بين الجدران والرمال، تقدر بمتر ونصف.

يظن الناس أن الشيخ الصالح استطاع أن يدفع الرمال عن "مقامه" طوال تلك السنوات، في حين أن قبورا كثيرة طُمرت. يقولون إن أولياء

الله الصالحين يظلون أحياء في قبورهم؛ يعرفون زوارهم ويسمعون أصواتهم. لقد صنع الجدار حائط صد يحول، بشكل طبيعي، دون تقدم الرمال، كما هو الحال مع أشجار الأثل التي تحيطها الرمال وتقف منها على مسافة تسمح بعدم طمرها تماما.

دفَعَ الباب الخشبي الهزيل فانفتح في يسر، محدثاً أنينًا حادا لا يليق بحجمه. داخل المقام، كان تيار الهواء البارد يسري من الفتحات المستطيلة والمثلثة الشكل، الموجودة في التجويف العلوي للقُبّة. أنزل مقطافه في هدوء. جلس في مواجهة الضريح المكسو بقماش أخضر، مستندا بظهره إلى الجدار.

كانت القُبَّة مثل قطعة من الليل هبطت وسط الهاجرة في غفلة من الزمن؛ ظل ظليل، وبساط رملي بارد يبعث على الاسترخاء، وشجرة صفصاف كبيرة تعرش على يمين الباب مباشرة. مَسَّه ارتياح غريب وهدأت أنفاسه بعد أن نجحت تلك النسمات الباردة في تجفيف العرق الذي كان يسبح فيه منذ قليل ثم راحت عيناه تطالع كسوة الضريح الخضراء.

يشعر أن ثمة علاقة بين لون تلك الكسوة وأمه. يُشعره ذلك اللون الأخضر براحة نفسية غريبة. قام من مكانه، متقدمًا بضع خطوات نحو الضريح. انحنى في بطء ثم أخذ نفسًا عميقًا. تحسس القماش بأصابع مرتبكة. له ملمس رخو ورائحة خاصة. أغمض عينيه، ثم قرَّبَ القماش

إلى أنفه أكثر، فانبثقت في محيط عينيه المغلقتين صورة أمه التي ظلت لسنوات تغذي عنده أهمية أن يتعلم حرفة تقيه صروف الدهر. وقتها لم يكن يهتم. كان يشيح بيده بلا مبالاة، بينما تكرر على مسامعه إنه سيتذكر كلامها ذات يوم، وسيندم. لكن أباه كان ينصحه بأن ينفض رأسه من تلك التفاهات، وحثه على أن يترك نفسه للطريق ولا يفكر فيما ستكون عليه الحياة التي تقدر وحدها على تعبيد الطرق الوعرة.

كان يسمع كلام والده ويثق فيه، فلا يسمع كلامًا بعده. لقد سأل والديه أكثر من مرة عن السبب الذي يرغمهما على العيش في مثل هذه الأماكن. لماذا يقبعان على الأطراف دومًا؟ لماذا يتنقلان باستمرار هكذا؟ من أي البلاد هما؟ مَن أقربهما وأين هم؟ لكن، ما من إجابة شافية أرضت غروره.

ثبت نظراته في لون الغطاء الأخضر الذي أمامه... لمعت العملات المعدنية التي يضعها الناس نذورًا للشيخ. خفق قلبه بقوة في صدره. عيناه تغوصان في الخضرة الداكنة، فيرى والدته في جلبابها الأخضر الداكن، تمد يدها وتعطيه... يمد يده ويسحب كسوة الضريح. كانت تستعطف الناس، تمد يدها، فيعطونها، وحين تعود إلى البيت، تمد يدها وتعطيه. يمد يده ويسرق النذور.

مرر أصابعه على جيب الجلباب متحسسا النقود. تطلع للأعلى؛ القُبة دائرية الشكل ذات فتحات دائرية تطل على السماء. تأمل صفاء اللون



الأزرق من خلال فتحات القبة. السماء صافية تمامًا. ارتدت عيناه إلى غطاء الضريح مرة أخرى، إلى تلك الكتابات التي خُطت على الجدران من الداخل. إلى صندوق النذور الذي يحتله الخواء.

-٢-

خرج من المقام بعد أن سحب الباب خلفه، فاستقبله هواء لافِح. مسح بناظريه الأفق. كان الهواء المغبّر يصنع نصف دائرة بيضاء، تُحزم غابات النخل في الناحية الشمالية، وتشوه لونها الأخضر الداكن. أيقن الآن، بخبرة اكتسبها من الطبيعة، أن تلك العاصفة المحملة بالأتربة ستشتد في أية لحظة.

في الخارج، كان كل شيء في مكانه. يرقد الأموات في سلامهم الأبديّ. تقف أشجار الصبار، بخضرتها الداكنة، صامتة متحفزة أشواكها كأسلحة بدائية. كل شيء هادئ، باستثناء سعف الجريد الذي وضعته النسوة فوق المقابر في نهاية الأسبوع الماضي، ذلك السعف الذي جُلب أخضر يبهج النفوس، جففته الشمس فتحول لونه من الأخضر الداكن إلى الأبيض الشاحب. سعف الجريد الجاف، يلاعبه الهواء ويلعب به، فيهتز محدثًا ضجيجًا يقض مضاجع الأموات.

إنها دورة الحياة القصيرة التي لا ينتبه إليها أحد. كل شيء يبدأ أخضر، ثم ما يلبث أن يذبل، ينزوي ويجف لتنتهي بذلك دورة حياته التي لا تمثل سوى جزء من بلايين الأجزاء من دورات الحياة في عُمْر هذا الكون.

لم يأبه لحبيبات الرمال التي كانت تلسع باطن قدميه الخافيتين. يمشي مطمئنًا راضيا عن تلك الحيل التي يتفتق عنها ذهنه، ليغافل بها أولئك الطيبين. يشفق عليهم أحيانا ولا يخشاهم. كانت نظراته تمسح الكثبان الرملية العالية غربي الواحة، بينما ينحدر حاملا "مقطافه"، وقاصدا زقاق الماء. يتأمل بساتين النخل التي تظهر في شكل قوس من الناحية الشمالية، بيوت الواحة المتكتلة في دائرة شبه منتظمة أعلى الربوة، الحظائر المستكينة بالقرب من المقابر. يرقب، بينما أذناه تتسمعان. يفعل ذلك بعفوية شديدة. يفعل ذلك وربما لا يدري أنه يفعل.

عندما وصل إلى نهاية أرض المقابر، كان صوت قدّوم "علي التهامي" يكسر الصمت. يحمل الهواء صداه ويهوي به على مؤخرة رأسه لتتناثر ذكريات لعينة لا يحب أن يتذكرها. كان يدهس كل ما يقابله من بقايا الأواني الفخارية المتناثرة في المكان. يطأها بقدمه ثم يضغط جسدها المقوس فتنكسر، محدثة صوتا مريحا يشعره بانتصاره. منذ أن ضغط "عزيزة" بين ذراعيه ذات ظهيرة وهو لا يكف عن تكسير بقايا الأواني الفخارية التي يقابلها في طريقه.

❋ ❋ ❋

كان يمر ذات يوم بالقرب من النبع عندما لمح عزيزة ابنة "المجبّراتي" منحنية تملأ جرتها من ماء النبع وقد لملمت أطراف ثوبها بين فخذيها فظهر ذيل قميصها الأحمر عند انثناءة الركبتين، بينما يداعب الماء نصف

ساقيها. ساقاها مدملجتان وفخذاها يملآن العين. يا لقميصها الأحمر.. أحمر، أحمر. يا له من لون. قميص رشيدة، الذي وجده معلَّقًا في أشواك شجرة السنط، يومض أمام عينيه ويختفي في غمضة عين.

طلَّق "عليّ" ابن تهامي النجَّار عزيزة منذ عدة أشهر. حملق جنيد في الزقاق يمنة ويسرة وقامت أذناه بعملها سريعا. لم يلمح كائنا يتحرك ولم تلتقط أذناه صوت نملة تدب على الأرض، فتحفز للإيقاع بها. يوقن أن الفرصة تأتي مرة واحدة فقط، والظروف لا تواتي إلا في غفلة من الحياة. مشى في خفة ثعلب نحو مجرى الماء وهو يشمر طرف جلبابه ويعقده حول خاصرته. اعتدلت منتصبة عندما لمحته وحين استدارت وجدت نفسها بين ذراعيه بينما يداه تقتحم جسدها المفعم بالحزن والشوق. سرى المخدر سريعاً، وانصاع جسدها الضعيف تحت تأثير قوته وعنفوانه. صارت مثل دمية يقلبها بين يديه كيف يشاء. لم يكن متأكدًا، عندما أقدم على فعلته تلك، من ردة فعلها؛ أتَقبل أم ترفض. كان قد اتخذ قراره وانتهى الأمر، لكنه تعجب أيضا من عدم مقاومتها وانصياعها بهذه السهولة. كانت مثل عجينة في يده. أغمضت عينيها وغطست معه في نبع من اللذة خرجت منه مبللة وراضية.

❊❊❊

علَّمته الطبيعة أن يداهم ليلًا، حيث يصبح العالم بما فيه مِلكًا مشاعًا للجميع. لم يتعود الخوف لأنه لا يملك شيئًا يمكن أن يفقده سوى

الفراغ والوحدة. وماذا أيضا؟ الرغبة الجامحة في اقتناء أنثى ناضجة، يُلبسها قميص نوم أحمر، ثم يشكلها كيفما شاء. يُطلقها أمامه، ثم ينطلق وراءها في جًنبات البيت. يجرها من شعرها، ويعجن جسدها في الأركان، بينما يستحثه صوتها ــــ الذي يبدأ هادرًا، ثم يهدأ رويدًا رويدًا كخرير نبع ــــ يستحثه على الإقدام.

يسير في الليل كملكٍ متوَّج،

يسير متمهلًا،

يرسم في رأسه خرائط شديدة الدقة

لمداخل الطرقات ومخارجها/

للحقول/ الحظائر/ أسوار البيوت/ الأسطح/ وصوامع الغلال...،

يحدق عن كثبٍ في نوافذ البيوت المضاءة

والمطفأة أيضًا.

لا يداهم منزلًا ولا حظيرة إلا إذا تأكد أنه سينجو، مخلفًا من ورائه رهبة في نفوس الناس...

يشعر أنه في الطريق الصحيح نحو الانتصار،

كاسرًا القلوب التي كسرت قلب أبيه ذات يوم.

***

ذات ليلة شتوية معتمة، تسلل البريّ مثل شبح راكبًا حماره الأسود ليسرق جوال سُكّر من سيارة "أبو هشيمة" التيٍ وصلت إلى محطتها الأخيرة حاملة المواد التموينية المدعومة، بعد أن انتظرها الناس حتى ملوا من الانتظار. وصلت السيارة في وقت متأخر من الليل ولم يكن في انتظارها أحد.

يعرف أن الحذر واجبٌ في موقف كهذا، وأنه لا سبيل للخطأ. لم يكن في حاجة إلى مراجعة القواعد الأساسية للعبة:

-يراجع خطته جيدًا.

-يتمّم على أدواته.

-يسير ملثمًا متخفيًا.

-لا يترك أثرًا يدل عليه.

-لا يحدث صوتًا يمكن أن يلفت الانتباه.

-لا يؤذي أحدًا

لكن الحمار يمكن أن ينهق فجأة، فتعرف الدنيا كلها بمكانه. لذا، قبل أن ينطلق، كمم فم الحمار جيدًا بحبلٍ من "الليف".

كانت العتمة قد أحكمت قبضتها على كل الموجودات، وبدت واحة

"عنقيش" مثل حجر بازلتي داكن في عُمْق الصحراء. سلك الرجل طريقًا مختصرًا بين الكُثبان والأحراش ليضمن ألا يراه أحد. حتى أمسى بالقُرب من بغيِّته ترجَّل عن حماره. وقف صامتا يتسمَّع؛ ما من كائن أو حركة في الجوار. كان النوم هو السلطان الأوحد الذي يحكم الجميع.

أوقف الحمار خلف الصندوق المعدني المترع بالبضائع فكان ظهر الحمار ـــــ الذي تعوَّد على الوقوف بطريقة تخدم صاحبه ـــــ أوطأ قليلًا من سطح صندوق السيارة. لن يتكبَّد البريّ عناء رفع جوال سكر بمفرده؛ سوف يسحبه سحبًا، ليزحف على السطح المعدني الأملس، ثم، بجذبة قوية يمسي جوال السكر فوق ظهر الدابة مباشرة.

تحسس البضائع إلى أن عثر على الجوال مستلقيًا في مؤخرة الصندوق. سحبه بعزيمة قوية وبحرص شديد حتى وضعه على ظهر الحمار، ثم سار به، في عتمة الليل ناحية المدق الصحراوي غرب الواحة. سار خلف حماره لما يقرب من ساعة ليصل إلى "العين المُعلَّقَة" قبيل انبلاج الضوء.

هناك، قصد التاجر الذي تعود أن يبيعه كل ما يسرق بأبخس الأثمان. أعطاه جوال السكر، واشترى ضرورياته، ثم قفل عائدًا، بعد أن نقده التاجر ما تبقى من الثمن.

عندما رَقَدَ في فراشه، كانت الشمس قد خرجت بالكاد من مكمنها. الشرقيّ

❋ ❋ ❋

يتعالى صوت قَدّوم "عليّ" ويزداد وضوحًا كلما اقترب جُنيد من زقاق الماء. صفعته الرياح – التي اشتد عودها– على وجهه، وزفَّت إليه رائحة شاي يغلي ورائحة دخان شيشة، فتحركت داخله رغبة مميتة في الحصول على كوب من الشاي.

عُشة

-١-

انفجرت الرياح غاضبة وبدأت بالفعل في تغيير خريطة الزقاق، إذ كنست أجزاء منه ثم نقلت كل ما كنسته من رمال لتلقيه في الجهة الأخرى، صانعة أودية جافة، في نهر الزقاق، ضيقة وخالية من الرمال. كما دفعت سعف النخيل الجاف ليسقط من فوق أسطح البيوت مبعثرًا هنا وهناك. تطوحت أغصان شجرة التوت الضخمة- التي تكاد تملأ الشارع ما بين بيت "عشومة العايق" وبيت "عبد الحي" حارس الحقول- محدثة نواحًا غريبًا لم يألفه أحد.

أثارت الرياح فوضى عارمة وذرَّت الغبار في وجه عُشة وابنها، فترك العصا الجافة التي يتخذها حمارًا لتسقط من بين ساقيه، وجعل يفرك في عينيه. وكادت قطعة القماش البيضاء، التي تغطي الطعام، أن تطير لولا أن أدركتها قابضة على أطرافها. كانت الرياح تدفع الغصن المعوج لشجرة التوت، فيضرب خصاص نافذة بيت عشومة، تاركاً خربشات على سطحها الخارجي الكالح اللون.

لا يدري أحد سر شغف الرجل بأشجار التوت. فقد كانت شجرة

توت تنتصب أمام بيته القديم الذي هجره اتقاء زحف الرمال. الكثبان الرملية الضخمة التي تجثم شمالي الواحة، تدفعها الرياح الشمالية لتزحف باستمرار ناحية الجنوب مكتسحة كل ما يقف في طريقها من منازلٍ وحقول. ردمت بيت الشيخ ونوس القديم أيضًا، وبيوت أخرى كثيرةً هجرها أهلها بعد أن كبست عليها الرمال ـــــ حتى المقابر، لم تنجُ من قبضها ـــــ تركوها لقمة سائغة لذلك الوحش الذي يزحف في بطء وإصرار، وشيدوا أخرى كانت، في اعتقادهم، بعيدة عن أيدي الرمال.

في الواحة، تحيط الرمال بكل شيء يتنفس، تكبّله فلا يستطيع منها فكاكًا. تَنْسَلّ في مكرٍ من أعلى الهضبة. تزحف، في بطءٍ شديدٍ لا يكاد يُحس، ناحية البيوتً والمزارع ليجد الناس أنفسهم فجأةً محاصرين من جهات عدة. لا مفر إذن من الاتجاه جنوبا.

العجيب في الأمر، أن الرمال لا تزحف إلا ناحية العمران، فيترك الناس لها المكان. تزحف في بطء وهم ينتقلون في بطء أيضًا. بيوت الواحة، التي غطست منذ سنوات في بحر الرمال، سوف تظهر ذات يوم ـــــ ستظهر أسقفها أولا، ثم جدرانها ونوافذها، وأزقتها الملتوية وشوارعها الضيقة ـــــ بعد أن تنسحب الرمال في طريقها الأبدي نحو الجنوب.

ما الذي سيفعله الناس إذا كانت الحقول من صُنع الله، والأشجار

التي تحميها أيضًا، وكذلك الرمال التي تهددها بالفناء؟

تلك الرمال، ذات التموجات الهادئة المزخرفة بحبات لامعة، هي ذاتها التي نصبت فَخّها "لريحانة"، ابنة "غزال"، ذات ضحى.

يعرف الناس هنا، بالسليقة، أن الله خلق الداء والدواء معًا، وألقى في الأرض بذرتيّ الخير والشر، منذ أن خلق الكون.

***

نظرت عُشَّة، في عفوية، ناحية بيت عشومة العايق. كانت البوابة الثقيلة، المحددة حوافها بمعدن رقيق صدئ، مفتوحة على مصراعيها وكانت "هشيمة" زوجة "مسلَّم" تجلس في القاعة الداخلية للبيت على بساط من الخوص. كانت تجلس القرفصاء، بينما تعمل أصابعها الرفيعة في ضفيرة الخوص بمهارة وسرعة فائقة. يجلس الصغير "سالم" إلى جوارها، قابضًا على قطعة خبز جافة، يقرضها في خبرة فأر. تمهلت عُشة قليلًا عندما أصبحت في موازاتها، ثم ألقت السلام. التفتت "هشيمة" وهي تنتفض، كأنها فوجئت بمرورها. تركت ضفيرة الخوص التي كانت تتلوى في يديها كثعبان طويل وهبت واقفة ترد التحية. مرق الولد أمين ثم جلس إلى جوار سالم، ومد يده ناحيته قائلاً:

-أعطيني لُقْمة.

"لا"، قال سالم وهو يضم قطعة الخبز إلى صدره كأنها آخر زاده.

"اعطيه يا ولد وإلا مَلَصْت رقبتك الرفيعة دي" قالت أمه مهددة.

"اتركي الولد في حاله" أجابت عُشة.

"الولد دي راسه أصلب من "حَجَر البُورَة". قالت هشيمة وأشارت إلى أحد أحجار دق الأرز الملقاة بالقرب من الجُوَر الخمس المصفوفة لصق حائط القاعة الطويلة والمخصصة لدق الأرز.

فرّ سالم إلى الداخل محاولًا النجاة بقطعة الخُبز، وأمه تتوعّده مهرولة خلفه، وعُشة تدعوها وتستحلفها أن ترجع وتتركه وشأنه، لكن هشيمة لم تلتفت وأكملت طريقها نحو الداخل متجاوزة جور دق الأرز، المحفورة على مسافات منتظمة، بموازاة حائط القاعة الخارجية للبيت. خمس جور دائرية مجوفة بعمق نصف ذراع، تستكين داخلها خمسة أحجار ناعمة اسطوانية الشكل، تراكم عليها تراب ناعم كثيف كاد أن يخفيها عن الأعين.

عادت "هشيمة" بقطعة من الخبز والجبن الجافيْن، وناولتهما للصغير الذي تهلل وجهه فرحًا. ثم طلبت من عُشة أن تنتظر قليلًا إذ تريد أن تُريها شيئًا مميزًا. أشارت عشة إلى ما تحمله فوق رأسها قائلة إنها تود أن توصل الطعام إلى صاحب نصيبه قبل أن يبرد، وهشيمة تستحلفها ألا تبرح البيت إلا إذا أرتها ما تريدها أن تراه.

دخلت مسرعة، وعُشة تتابع خطواتها محدقة باستنكارٍ في مؤخرة المرأة الشابة. تخطت هشيمة قاعة " المزاير ـــــ حيث تنتصب ثلاث

مزاير على محمل خشبيّ مغروسة قوائمه في أرضية القاعة ـــــ ثم انعطفت يميناً لتصعد السلم الذي يؤدي إلى حجرات النوم في الطابق الثاني بينما جلس الطفلان في هدوء يتأملان قطرات المياه المتسربة من قعر الزير: تبدأ قطرة الماء صغيرة لا تكاد تُرى، ثم تكبر وتستطيل لتسقط بعد ذلك صافية متلألئة في فوهة السقاء الموضوع أسفل الزير محدثة صوتاً لطيفًا ومحببًا إلى الآذان. وهل ثمة صوت، في هذه البقعة التي يحرقها الحر والعطش، أحب من صوت الماء؟

جلست تنتظر إلى جوار صينية الطعام حيث تكومت ضفيرة الخوص وتداخلت في شكل هلامي كأنها عائلة من الثعابين. أخيرًا، رأتها تهبط السلم على مهل: ترسم ابتسامة واسعة/ تعدل من وضع الإيشارب الملون فوق رأسها/ تمسد ضفيرتها المنسدلة على صدرها/ تتحسس خصلة منسدلة على جبهتها/ تخطر الآن في مشيتها، بل تكاد ترقص، مترنمة بأغنية معروفة للجميع:

"بوِّط فيّا وارميني

واحدفني ع السرير

بوّط من تحت صدري

وحاسب على ضلعتي

نوم السرير شوَّكني

ونوم دراعك حرير

الزين من كتر هزاره

كسر رجل السرير

وادي السرير من تعبه

يدعي ع النجَّارين"

"ما اتأخرت، إي؟" سألتها هشيمة وهي ترخي قبضتها عن قميص نوم من الحرير الناعم، كانت تكوره بين أصابعها، فانسدل معلنًا عن نفسه.

انقطع الطفلان تماماً عن تأمل القطرات المتساقطة، واستدارا في صمت. رفعا رأسيهما ناحية القميص الأحمر المتأرجح بين يدي "هشيمة" ونظرات عشة. تيار الهواء، الذي مر عبر البوابة المفتوحة على مصراعيها، جاء قاصداً قميص النوم، فما أن لمسه حتى تراقص أمام الأعين المتعلقة به.

ربما ستمحو الأيام ملامح تلك اللحظة من ذاكرة هذين الطفلين تماماً، أو ربما ترسخ في ذهنيهما ليتذكراها، عندما يكبرا، في مواقف قريبة الشبه بهذا الموقف.

انحنت عُشَّة لتحمل صينية الطعام فأسرعت صديقتها لمعاونتها في رفعها ثم نظرت إليها باسمة وهي تهز قميص نومها الأحمر في الهواء.

على مضض، ابتسمت عشة واستأذنتها في الانصراف. على الرغم من أنها لم تمكث لدى هشيمة سوى دقائق معدودة إلا أنها شعرت أن دهرًا قد مر منذ دخولها بيت عشُّومَة. تخطت عتبة البيت وانعطفت في الشارع يميناً، يتبعها ابنها وابن جارتها بشريحتين من الخبز الجاف.

يأخذ الزقاق الضيق في صعوده البطيء أمام بيت عبد الحي ثم يسير مستويا حتى بيت عبدون، ليعاود الهبوط التدريجيّ مرة أخرى كي ينتهي عند المدق الصحراوي في الشرق.

تسير في منتصف الزقاق، والطفلان عن اليمين وعن الشمال. يقرض سالم شريحته من الخبز في بطء وتلذذ، وكلما قضم قضمة صغيرة يرفع ما تبقى منها أمام عينيه، يلاحظها وهي تتضاءل بين يديه شيئًا فشيئًا. كان "أمين" أكثر منه مكراً لأنه ظل يحمل شريحته في يده، لا يرفعها نحو فمه إلا نادراً. ينظر بين الحين والآخر ناحية خصمه محاولاً أن يقارن بين حجم الشريحتين.

أجهز سالم على طعامه، وبدا ساهمًا حزينًا، ينظر خلسة إلى ما في يد صاحبه الذي تظاهر باللامبالاة، بينما كانت تهزه من الداخل بهجة لا حدود لها. يبدو أنه قد فطن أخيرًا لما يدور في رأس أمين، فندم على أنه انتهى من طعامه بهذه السرعة، بينما صاحبه ما زال يدير فكّيه في لذة لا تتبدد. ولّما لم يكن متأكدا من شكوكه، مد يده إلى صاحب الطعام، ونظر إليه باستعطاف كي يعطيه لُقمة، لكن ظنونه قد تأكدت عندما هز أمين

رأسه نفياً في بطء شديد، بثقة واستعلاء تامين.

لم تنتبه عُشة لتلك المعركة الصامتة التي تدور بين الطفلين، فقد كانت أفكارها تدور في مكان آخر. استطاعت "هشيمة" ببراعة، أن تفض غلالة الغيرة داخلها، فقررت أن تُري زوجها هذه الليلة ما لم يره منذ زمن.

هشيمة ليست أفضل منها بأية حال. إنها أنثى، وكل أنثى ضعيفة أمام اللون الذي تفضّله، اللون الذي تعتقد أنه الأكثر غواية بين الألوان. لا تدري لماذا تعمدت صاحبتها أن تُريها قميص نومها الأحمر! توجد هذه الأشياء وكل ما هو على شاكلتها لدى كل نساء الأرض. فأين الفخر في ذلك؟

وقفت عُشة قبالة باب بيت "عبدون" المفتوح. لمحت زوجته تجلس أمام الرحى، وقد لمت أطراف ثوبها بين ساقيها المنفرجتين فظهرا مثل عمودين من الرخام المصقول. تدير اليد الخشبية الساقطة في ثُقب الحجر الأملس المستدير وقد احمر وجهها. رأسها محنيّة للأمام قليلًا بينما يدور نصف جسدها العلويّ في ليونة مع دوران الحجر فتهتز الأجزاء الطافرة في الجسد المتيقظ.

طَرَقَت الباب، فانتبهت الجالسة وتوقفت يدها عن دفع الرحى وقامت تنفض التراب العالق في ملابسها. أخبرتها عشة، وهي تقلد طريقة وقفة هشيمة غير المستقرة ونبرات صوتها الأنثوي المبالغ فيه،

أن ابنة منيرة أصرَّت على أن تُريها قميص نومها الجديد. هما واثقتان أن هشيمة لن يهدأ لها بال ولن تشعر بالراحة، حتى تعرضه على كل فتاة وكل امرأة في الواحة.

عزيزة

اخترقت النسوة زقاقَ الماءِ في طريقهن إلى المقابر التي تحتل جزءا من الفضاء الواسع غرب الواحة. لا حياة في ذلك الفضاء، الذي ابتدأت الكثبان الرملية تزحف ناحيته، سوى بعض أشجار "السنط" و"العبل" البلدي المتناثرة وبعض الحشائش التي قاربت على الجفاف.

يسرن في صف واحد، تقوده "منيرة". لا يسمح ضيق الزقاق بمرور أكثر من شخصين متجاورين. الصمت الذي ران عليهن، منح المهمة رهبة وجديّة. وقتئذ، اشتدت الرياح أكثر من ذي قبل، فتطوحت أغصان الأشجار وتصارع جريد النخل في الأعالي، حتى أن أطراف الجريد الجاف في السياج قد تلاطمت. امتزجت تلك الأصوات محدثة وقعها في النفوس لتشكل رهبة ما، بينما أتى من الجوار صوت دق، يتكرر بانتظام. هن قد عرفنه واعتدن عليه. إنه "عليّ"، ابن تهامي النجَّار، يُعمل قدّومَه في بعض جذوع الأشجار. يهذب النافع منها ويقطعه إلى أجزاء يُمكنه استعمالها فيما بعد.

سارت "عزيزة" في نهاية طابور النسوة ساهمة، يدق في مسامعها صوت ارتطام القدّوم بالأخشاب، كأنه يهبط في قسوة على جسدها الضعيف فيمزقه قطعًا صغيرة. تسير شاردة، نائية عما حولها. تعرف أن

النجار مع ابنه في الجوار، فقد التقطت أذناها صوت سعاله المتكرر، من جراء الشيشة التي لا ينقطع عن تدخينها، تاركاً لابنه "عليّ" مهمة إنجاز العمل. كبر عثمان، وضعف جسده. صار يكتفي بالجلوس في الظل، إلى جوار ابنه حيث يعمل. يوجِّهه في كل صغيرة وكبيرة، و"عليّ" ينصت إليه دون أن ينفذ حرفا من كلامه.

التقطت أنفها رائحة الدخان، الذي حمله الهواء معه من الناحية الشمالية: دخان الموقد، رائحة دخان الشيشة، ورائحة الشاي، الذي ابتدأ يغلي فوق نار الموقد الطيني. ترافق وحدتها ولا تكاد ترى النساء اللواتي يتقدمنها.

قبل أن تخرج، أصلحت من حال ملابسها، ونظرت لهيئتها في المرآة المثبتة في الحائط أكثر من مرة. نظرت إلى ثدييها، وحزنت عندما لاحظت أنهما قد تهدلا، وارتخيا قليلاً للأسفل. تذكرت حالهما قبل سنوات، وقد انتصبا في تحدي مَن لا يرضى بالهزيمة. يمر اليوم كما مر الأمس، رتيبا وقاسياً. حتى أمها لم تعد تحسن معاملتها كما كان الحال خلال فترة زواجها القصيرة. صار حديثهما مقتضبا وبارداً. إن نظرات والدتها اللائمة تذبحها بسكين ثلم. لا تدري لماذا تلقي اللوم عليها؟ هي التي لم تخطيء في حق زوجها يوماً، ولم تعصه في أمر، بل إنه كان يضربها أحيانا دون سبب واضح. كانت تشعر أنه يخفي أمرا، أو يشك في أمر لا تدري كنهه.

لقد أضحت الآن وحيدة. بل إنها كتمت جرحها برماد مشتعل عندما أخبرها في لحظة غضب أنه تزوجها بعد أن فقد الأمل في زواجه من هشيمة. قال لها ذلك، ثم ندم على ما قال. اعتذر إليها مرات، لكن قلبها كان قد انكسر.

لم يعد جسدها غَضّا وثائراً كما كان. تثاقلت خطواتها التي كانت أخف من ريشة طائر يزفها الهواء. تأخرت قليلاً عن طابور النسوة المُتَسَربلات بالسواد. كثيراً ما تراودها في المنام رؤى غريبة: ترى أن ثدييها قد تضاءلا شيئاً فشيئاً، حتى أصبحا في حجم ثمرة الدوم. ترى أنها تسير عارية في وضح النهار، والرجال الذين يضطجعون في ظل السقيفة يتفحصون جسدها ويتضاحكون، بينما تبحث عن شيء تستتر به فلا تجد، يتضاءل ثدياها حتى يصبحا في حجم ثمرة الليمون. ينتابها فزع عظيم عندما تلمح الشعيرات السوداء التي بدأت تظهر لتحيط بحلمتيها. تهب مفزوعة. تطلق صرخة ترتج لها جدران البيت ويتصدع من أثرها غطاء الليل السميك. تأتي أمها مهرولة. لا تجرؤ أن تروي لأمها ما رأته، تبكي. فقط، تخبئ وجهها بين ركبتيها المضمومتين، وتبكي.

***

انتهى الزقاق الضيق، وسلَّمَهُن إلى مساحة واسعة، تشغلها غابة كثيفة من الأشجار. كانت عزيزة تسير في المؤخرة بخطى مرهقة، مغيَّبة

الوعي، بعيدة تماما عما يدور حولها. التفتت "منيرة" عن يمينها، ثم ألقت السلام على التهامي وابنه: "يعطيكم العافية". خرجت المُطَلَّقَةَ من عالمها الخاص وأصابتها رعشة عندما سمعت صوت زوجها السابق يرد السلام وهو يلهث: " الله يعافيكِ يا خالة"، بينما اكتفى والده برفع يده بالتحية، ثم عاود العبَث بنار الموقد.

التفتت عزيزة ناحية الصوت، وكانت قد ترددت قليلا في البداية. نظر إليها، وهو يقبض على قدّومه بيده اليمنى وطرف ثوبه معقود حول خاصرته. يقف مباعدا بين ساقيه الرفيعتين، ومحتوياً بينهما فلقة شجر كاد أن يعريها تمامًا من الأفرع والأغصان الصغيرة المنبثقة منها، بينما يجلس أبوه متربعاً أمام الموقد الطيني وقد ضيق حدقتي عينيه أقصى ما يستطيع اتقاءً للدخان، فظهرت الأخاديد العميقة في وجهه أكثر عمقاً. نارجيلته إلى جواره، وأصابعه لا تكف عن العبث في حطب الموقد. يلقي توجيهاته، بين حينٍ وآخر، إلى ابنه الذي لا يلتفت إليه.

وقف يمسح قطرات العرق، المتلألئة على جبينه في كُم جلبابه، ثم منح زوجته السابقة وهي تمر نظرة متفحصة طويلة، تنبئ عن شوق بدأ ينمو ويتفرع داخله. هي بادلته النظرةَ بالنظرةِ، لكنها حمَّلتها بعتاب مرير، أحس به مثل شوكة قحْفٍ تُدَق في قسوة بين ضلوعه.

أما مشاعرها نحوه فقد كانت مختلفة. لقد فقدت جزءا مهماً من حياتها غير المهمة على أية حال. تشعر بآلام هذه الشجرة، التي تخيلتها

تقف في ذهول، تنظر لذلك الجزء المفقود من حياتها، وهو يرقد مدداً أسفلها. ترى أنها تشبه ذلك الجزء من الشجرة. ترقد مستسلمة، بينما تُقَطّع أفرعها التي تنبض بالحياة، الواحد تلو الآخر.

وقف "عليّ" صامتاً، وقد انكسرت نظرته حتى استكانت ذليلة فوق الجذع العاري بين قدميه. أحس الأب بهما، لكنه تشاغل عن نظراتهما برَفْع سخان الشاي الأسود، الذي كان يئن فوق اللهب. وضعه على الأرض في سرعة، ثم نفخ في أصابعه ثلاثاً عندما لسعته سخونة المقبض المعدني.

كان الهواء الذي جن جنونه منذ قليل يعبث بنار الموقد، فتتراقص ألسنة اللهب هنا وهناك، ويتجه الدخان حيثما أراد له الهواء أن يتجه. دعك التهامي عينيه ثم رفع السخان وهو يسعل فاهتز جسده النحيل. صب الشاي في فنجانين تساقط معظم طلائهما الأبيض فتحولا إلى كائنين مرقطين.

نظرت عزيزة إليه نظرة أخيرة، وهي تجر قدميها خلف النسوة اللواتي اخترقن الغابة الصغيرة، فتفرقت بهن السبل بين الأشجار. تشعر أنه أصبح أكثر صلابة عما كان. كيف يهجرها، وهو الذي كان متعطشا إليها على الدوام؟ كيف نبتت هشيمة كنبت شيطاني بينهما؟ هل كانت ابنة منيرة مغروسة حقا بين ثناياه قبل أن تظهر هي؟ حتى لو كان ذلك كذلك، لماذا صمم أن يذكرها أمامها بتلك الطريقة؟

حاولت عزيزة أن تتذكر ما إذا كان "عليّ" قد تلفظ باسم هشيمة في منامه، لكن رأسها المشوشة حالت دون ذلك. كثيرا ما كنت تهذي في منامك.. آه يا عليّ، لقد جفت الأرض التي عكفت على غرس أسنان محراثك فيها. جفت الأرض التي كنت تستمتع بريها. جفت الأرض يا رجل، واتسعت شقوقها.

تضاءل صوت قدّوم "عليّ" حتى غاب عن مسامعهن تماما. كُن يخترقن المدق الرملي، المؤدي إلى المقابر. ويتعاركن مع الرمال الناعمة التي تسحب أقدامهن، فيقتلعنها بصعوبة، تزداد مع طول الطريق وثقل آنية الماءالتي يحملنها. يسرن متجاورات، يختلط لهاثهن بما تتمتم به شفاههن من أدعية يأملن أن تجلب الراحة لأرواح الموتى، تلك الأرواح التي تحلق في الليالي القمرية في فضاء الواحة، تتعرف أخبار أهلها وما صاروا إليه.

الحمراء

-١-

اقتربت النسوة من شجرة السنط الجافة، في طريقهن إلى المقابر، عندما التقاهُنّ عائدا من هناك، ومتجها نحو العمران. وقتئذ، دار تساؤل واحد في أذهانهن: "من أين يأتي في مثل ذلك الوقت؟، وما الذي كان يفعله في المقابر، إذا كان قادما من هناك؟" تأملنه مليا، إلا أن نظرة عزيزة كانت مختلفة تماما. كان يمشي مطمئنا هادئا، واثقا في خطواته.

التقت نظراتهما. تكاد نظرته الجريئة تخترق حدقتي عينيها. عيناها الثابتتان انكسرتا تحت شراسة نظراته. طأطأت رأسها وهي تلتف في خجلها. رفع رأسه مزهوا، وتعالت ضحكة في صدره، حبسها بين جوانحه. ها هو ينتصر كعادته. نظر إليهن متشفيا. فاجأته نظرات النسوة القاتلة. عيناه الثابتتان انكسرتا تحت قسوة نظراتهن. طأطأ رأسه ودمه يغلي. أوشكت زوجة "أبو هشيمة" أن تسُبه وتسب الذين خلفوه، لكنها حبست كلماتها في اللحظة الأخيرة. فر جُنيد من أمامها مثل فأر صغير تطارده قطة. ابتسمت لنفسها حتى أوشكت أن تصفق لها بينما هاجس داخلها يقول: "أنا، المرأة العجوز، استطعت أن أكسر أنفه دون أن أهز يدي أو حتى أتكلم". أسرع الخطو في اتجاه زقاق الماء، تقوده

رائحة دخان الشيشة وصوت قدوم "عليّ" الذي بدا أكثر وضوحا.

تباطأت عزيزة قليلا، فتأخرت عن النسوة بضع لحظات. كانت تتأمل شجرة السنط الجافة. لابد أنها يبست لأن ماءها قد جف. سقطت أوراقها التي كانت خضراء يانعة في يوم من الأيام. سقطت الأوراق، فلعبت بها الريح، وتعفر جسدها، الذي كان مُبْهِجًا، بتراب الأرض الناعم. نعم، إنه الماء. تلك الشجرة التي كانت تشتعل حياة، زحفت نحوها الرمال، ثم تجمعت حول جذعها، والشجرة المسكينة لا تُبدي حراكا. إنها الآن دون إرادة، مثلها تماما. نظرت إلى نفسها وتساءلت" هل أصبحت مثل تلك الشجرة؟ آه يا عزيزة، لقد نحل عودك، والثياب التي كانت تلتصق بجسدك أضحت واسعة وفضفاضة".

نصحتها أمها أن تسلم أمورها لربها. أمها التي ألقت عليها اللوم كله وقت طلاقها، ظنًا منها أنها هي السبب في هجر "عليّ" لها، عادت الآن لتغفر وتسامح. ذلك شأن الأمهات، دائما ما يسامحن ويغفرن. ذات ليلة، دخلت عليها الحجرة. كانت عزيزة تجلس كما اعتادت، رأسها بين ركبتيها ودموعها تبلل وجنتيها، لا يؤنسها سوى وحدتها، وضوء الفانوس الخافت الذي ألقى ظلا شاحبًا على وجهها تحولت بفعله إلى شبح قادم من زمن غابر.

سعلت الأم، ورفعت عزيزة وجهاً خارجاً لتوه من قبر. بُهتت الأم لمنظرها، واهتز قلبها. لم تحتملها قدماها وأوشكت أن تقع. سحبت

البنت من يدها، صعدت بها إلى السطوح. أعادها الهواء المنعش إلى نفسها. ارتمت في حضن أمها، ثم عانقتها عناقاً طويلاً حافلاً بالدموع.

-٢-

تبدو المقابر كتلة واحدة هلامية الشكل، تتخللها أشجار الصبار، وسط بُقعة واسعة، تحيط بها كثبان رملية عالية؛ بقعة ذات أرض صلبة، وتربة حمراء، لكن الرمال الزاحفة غطتها تماما، فسيطر الأصفر وتسيّد، بينما اختفى اللون الأحمر. لكن أهل الواحة ما زالوا يطلقون عليها "أرض الحمراء". يفصل بين المقابر القليلة والمقام كثيب رملي يمتد في استقامة كأن أحد بناه بهذا الشكل، له قمة مسنونة وحادة مثل نصل السيف. يلتف حوله المدق الرملي الذي يربط بين بيوت الواحة وحقولها.

ما أن وصلن إلى هناك حتى شَعَرْنَ بثورة الحياة تشتعل في دمائهن. نَسين التعب وجهد المشوار وحرارة الشمس وتلك الرياح الساخنة المحملة بالأتربة التي أهالت على أجسادهن وملابسهن تراب ناعم يكفي لتعكير صفو العالم.

إن الانشراح الذي يشعرن به في صدورهن، لا يقدر القلم على وصفه. يشعرن أنهن يؤدين بالفعل مهمة مقدسة، لا يقدر عليها غيرهن. قمن بريّ نباتات الصبار في نشاط زائد. أزلن أفرع الأشجار وسعف النخيل اليابس، ووضعن بدلا منه أفرعا، وسعفا أخضر. ثم جلسن يقرأن الفاتحة على أرواح الموتى ويسألن لهم الرحمة والمغفرة، إلا

أن الجلسة لم تخلُ من شئون البيوت: ما فعلته هذه، وما فعلته تلك، فلانة ذهبت وعلّانة جاءت. في نهاية المطاف، اتجهن جميعا إلى مقام الشيخ سعد الله لينظفن المكان ويزلن التراب العالق بالكسوة، ويسقين شجرة الصفصاف الكبيرة التي نمت من تلقاء نفسها في هذا المكان ولم يزرعها أحد.

دفعت منيرة الباب المتهالك للمقام فانفتح في خفة مرتطمًا بالجدار. كان صندوق النذور خاويًا، كما لم تقع أعينهن كالمعتاد على ذلك الكساء الأخضر الذي يزين المقام. ضربت منيرة بباطن كفها على صدرها ضربات قوية مسموعة وعيناها ثابتتان على الضريح الراقد تحت القبة البيضاء دون كسائه الأخضر. وقفن من حولها متسمرات كتماثيل يحدقن في الضريح العاري.

كلهن تبادلن الآراء، بينما وقفت عزيزة صامتة لا تبدي رأيا. إن آثار الأقدام واضحة في الداخل وتنبيء بلا شك أنها لرجُل. اتجهت شكوكهن إلى جنيد، ومن غيره قد يجرؤ على سرقة النذور وكسوة الضريح. كانت آثار قدمين ضخمتين حافيتين واضحة داخل البناء، وآثار قاعدة المقطاف باستدارتها المعروفة ونقوشها البارزة كانت هناك أيضًا.

-٣-

صار جنيد على مشارف زقاق الماء. شم رائحة دخان الشيشة تنبعث قوية من الجهة الشمالية، لكنه لم يعد يسمع صوت قدوم "عليّ"، فخمن أنه يستمتع الآن بكوب شاي ساخن مع أبيه. تقدم قليلًا ورآهما يرتشفان الشاي بالفعل، وكان تهاميّ يسحب أنفاسا عميقة من نارجيلته ولا يكف عن السعال. توشك روحه على الخروج، إلا أنه ماض في التدخين بعزم وإصرار.

" السلام عليكم"، ألقى جنيد التحية، رافعا يده الخالية، قبل أن يصل إليهما بخطوات.

" وعليكم السلام، اتفضل"، رد "تُهامي".

أما "عليّ" فقد حدثته نفسه: "من أين يأتي السلام، وأنت بيننا".

وضع المِقْطَاف أرضًا وجلس إلى جوار النجار الذي ناوله "مَبْسَم" النارجيلة، فأخذ أنفاسا طويلة متتالية!! لو كان ذلك طعاما، لقُلنا إنه لم يأكل منذ أسبوع. كان "عليّ" يجلس في الخلفية، مستندا إلى جذع شجرة تمد ظلها الوفير في كل اتجاه. يراقب الموقف، ولا يروقه الوضع. نظر إليه جنيد: "مرحبتين عليّ، كيف حالك؟". ابتسم له ابتسامة صفراء:

"نحمدوه على كل حال". ارتشف آخر رشفة من فنجانه وقام قابضًا على قدومه بينما كان والده يصب شايا للضيف ويسأله عن الوجهة التي قدم منها وعن أمور أخرى لم يسمعها الابن جيدًا، لكنه استشعر أن ثمة شيء غير سويّ في مجيء جنيد من هذه الناحية في مثل هذا الوقت.

***

لماذا ظهرت عزيزة في طريقه اليوم؟ وقد كان الليلة الفائتة يشتاق إلى أنيس في وحشة ذلك الصمت. حاول أن يجرب السير في شوارع الواحة وأزقتها الملتوية بينما كانت عزيزة ترتسم أمام ناظريه فيشعر بوخز الذنب بين ضلوعه. لم يعد يفكر في هشيمة منذ مدة طويلة. أقنع نفسه أنها صارت زوجة وأما، ولا يجوز التفكير في زوجات الغير، كما أنها لم تكن تهتم ولم تفكر به يوما كما كان يفعل...

كانت الأضواء الخافتة تتسرب من خصاص النوافذ الضيقة، وتلقي خطوطا رفيعة على تراب الشوارع المظلمة. تتناهى بعض الأصوات إلى أذنيه بين الحين والآخر؛ أصوات خشنة، ضحكات ناعمة، بكاء أطفال، ونعيق بوم يأتي من بعيد. تصل الأصوات كلها إلى أذنيه مكتومة، كأنما تخرج من حجرة مصمتة، بلا نوافذ. منحته النجوم التي ترصّع صفحة السماء قدرًا من الضوء فتسكع على راحته.

عندما مر تحت شجرة المانجو، المقابلة لبيت "أبو هشيمة"، فر طائر ما. ارتطمت أجنحته بالأغصان فأحدثت جلبة تكفي لكسر ذلك

الصمت. توقف فجأة مرهفًا السمع. استدار ببطء وعاد أدراجه حتى تخطي بيت "أبو هشيمة". ولأنه تأكد أن الصوت يأتي من وراء ظهره، فقد توقف وأرهف السمع مرة أخرى، ثم دار للخلف مارًا أمام بوابة بيت أبي هشيمة. في هذه المرة لمح ضوء الفانوس الخافت يتحرك داخل بيت الرجل فأسرع الخطى خوفًا أن تكون خطواته ذهابًا وإيابًا قد أقلقت الرجل وأيقظته من منامه. وكان كلما تقدم في الزقاق ازداد الصوت وضوحًا. جلس منكمشا في مكانه محاولًا أن يحدد مصدر تلك الخربشة وذلك الاحتكاك. دقق النظر ورأى شخصًا يصعد النخلة الملاصقة لبيت "زينب". تأكد أن في الأمر سرا؛ فليس هذا بالوقت المناسب لصعود النخل كما أنه ليس موسم جني البلح. قرر "عليّ" حينئذ أن يظل مكانه ليرى ما تسفر عنه الأحداث.

كان جنيد فوق النخلة الملاصقة للجدار، يحث الصعود نحو السطح، ومقطافه معقودًا بحبلٍ حول خاصرته. رآه يصعد حتى صار بموازاة السطح، ثم مد ساقه الطويلة فكان هناك. فوق ظل "عليّ" قابعًا في مكانه حتى لمحه يرفع المقطاف المربوط بحبل طويل، ثم يرخي الحبل رويدًا، رويدًا، إلى أن استقر قعره على الأرض. مدّ حينئذ، ذراعيه ليتأبط النخلة ويهبط. حمل المقطاف فوق ظهره ومضى...

يجلس هذا الشخص أمامه الآن، يثرثر مع أبيه، يشرب شايًا ويدخن. فضّل أن ينهض للعمل؛ إن أقسى الأعمال أفضل ألف مرة من الجلوس

في مكان واحد مع ذلك الكائن الذي رآه الليلة الفائتة يتسلق نخلة زينب ويداهم بيتها. يتكرر المشهد الآن أمام ناظريه مرات ومرات، مختلطا بذكرى طليقته التي تلح عليه هذه الأيام.

أسئلةٌ كثيرة، كانت تغرس أنيابها في لحم أفكاره وتخيلاته، بينما يضرب بقدومه الجذع في غل وقسوة. ما هذه اللهفة التي تجتاحه فجأة؟ من أين تنبع؟ منذ متى؟ ولماذا الآن؟ ما كل هذا الشوق الذي يجبره على التفكير فيها بهذا الشكل؟ سبحان مقلّب القلوب.

غابت عزيزة عن ناظريه منذ لحظات، تاركة رائحتها في المكان. تلك الرائحة التي لن يتعرف عليها أحد غيره تركت في قلبه جرحًا لا يتحمل وطئته قلب محزون كقلبه. بدا منفعلًا، عندما نظرت إليه. كان جفناه يرتعشان. لا يكاد يجرؤ على خفض ناظريه. كان قلبه- بعد أن غادرت المكان- دائم التلفت. ظل يرقب الطريق التي مرت منها، يتمنى أن لو سار خلفها إلى أقصى البقاع. غطس في بحر عالمه الخاص فلم يعد يشعر بأحد من حوله. هو الآن في بيته، في حجرة نومه، و.... أخذته تخيلاته بعيدًا بينما يعمل. كان جنيد قد استأذن وهمّ بالانصراف. لم يسمع صوته ولم يره وهو ينصرف... ضرب قدومه في الجذع الممدد في استسلام أمامه، لكن الغصن قد نجا هذه المرة لأن سن القدوم الحاد ترك الأغصان جميعًا، ليحدث جرحا في ساقه. صرخ مستغيثا بكل الرحمات المختزنة في هذا الكون، فلم يسعفه غير الألم...

اخترقت الصرخة أذنيه. ألقى مقطافه والتفت فجأة فانكفأ المقطاف وتدحرج الحطب، وانكشف المستور وظهرت كسوة الضريح منكمشة وبائسة. تفاجأ بوجودها ولم يتذكر سوى أنه أخذ نقود النذور فقط. انحنى مرتبكًا محاولًا جمع الحطب المبعثر لكنه يستطع التركيز، اعتدل بسرعة متحيرًا؛ هل يغيث المجروح، أم يجمع أحطابه ليداري بها جُرمه؟

- ٤ -

التقط جنيد ما تبعثر من الحطب، وألقى به في جوف المقطاف في عجلة، وبطريقة عشوائية، ثم أسرع إلى نجدة المصاب الذي كان جالسا إلى جوار الجذع، فاردا قدميه ولا يكف عن التأوه. أمسكه من ذراعه محاولًا أن يساعده على القيام، لكن الألم الذي سرى في كل بوصة من جسده لم يمنحه تلك الفرصة. نظر تُهامي إليه مستعطفا، فشعر الأخير أنه يتحتم عليه الآن أن يتخذ خطوة إيجابية في حياته. انحنى، فحمل "عَليّ" وسار به حتى بيت "عِثْمَان المجبّراتي" كي يرى له علاجا. وهناك تركه في الداخل وكر راجعًا لأخذ المقطاف.

استقبله المجبراتي بترحاب أحدث في نفسه أثرا وجعله يخجل من نفسه. اكتشف "عليّ" أن الرجل لا يحمل له أي ضغينة. إن وجهه البشوش وصفاء نظرته يخبران بذلك: "بالراحة، على مهلك" قال المجبراتي، ثم أجلسه ببطء على البساط اليدويّ الذي يشغل جانبا كبيرًا من القاعة الداخليّة للبيت. فحص قدمه ثم استأذن منه للحظات بينما ظل "عليّ" يرمقه حتى اختفى عن ناظريه.

كان عليّ يضع أفعاله وأفعال المجبراتي في الميزان فيشعر بالخزي. تحدثه نفسه: "ألا يطردني!! أنا الذي طلَّقْت ابنته وجعلتها أضحوكة بين

رفيقاتها، كيف يقابلني بكل هذه الحفاوة، يا لي من شقي". نكّس رأسه، ثم زفر في أسى.

وقع خطواتها في مدخل البيت، جعله يعتدل منتفضًا، ناسيا آلامه. لم يَنْس وقع خطواتها بعد. ما لم يكن يتوقعه أن يعامله أبوها بهذه الطريقة التي تركت لديه انطباعا رائعًا وأثرًا لا يُمحى وأقنعته أن الأمور قد تسير إلى أحسن الأحوال.

فوجئَت بجلسته، فتسمّرت في مكانها. في رفق، وضعت السقاء الفخاري الذي منحت ماءه لنباتات الصبّار ونظراتها لا تحيد عن ذلك الجالس. إنه هو، بشحمه ولحمه، يجلس فاردا ساقيه في عمق دار أبيها. ما الذي أصاب ساقَه يا تُرى!! نظَرَتْ مليا فشهقت وهمت بالاندفاع نحوه، ثم تذكرت أنها لم تعد زوجته. ساقه اليسرى مخضبة بالدماء. نظرت في عمق عينيه مباشرة. ربتت نظرتها الحانية على كتفه قائلة "سلمت من كل سوء". نظر في عمق عينيها. نظرته المتلهفة قالت "سامحيني، أخطأت في حقك يا عزيزة"

لم يشعر أي منهما بدخول الرجل الذي عاد وفي يده حزمة أعشاب. وقف مكانه، واصطنع سعالًا حتى ينتبها. انتبها أخيرًا. نظرت إلى أبيها. نظر إليها فلم يصدق عينيه. هل هذه ابنته حقا!! هذه المبتسمة، ذات الوجه المضيء التي تقف أمامه الآن هي ابنته!! هذه الواثقة في نفسها.. هذه الطفلة. أوشك أن يقع مغشيا عليه من أثر الفرحة. كان يستطيع أن

يصدق أن السماء قد تنطبق على الأرض، لكنه لم يكن ليصدق أن ابنته يمكن أن تتبدل أحوالها هكذا في غمضة عين. " الحمد لله"، هجس، وهو يتقدم مبتسما نحو زوج ابنته السابق.

"الشفا من الله يا ولدي"، قال المجبراتي بحنان بالغ.

" الله يخليك يا عم عثمان.. أنا.. في الحقيقة.. أنا.. ما عاد.. أنا آسف"، قال وهو يتطلع إلى وجه عزيزة التي لم تتحرك من مكانها بعد.

" خدي العُشبة دول، اصحنيهم (اطحنيهم) زين"، قال المجبراتي.

" حاضر"، قالت بصوت خفيض، يفيض منه الفرح.

" استأذنك لحظة"، قال عثمان مبتسماً، فأومأ زوج ابنته السابق وهو يرد ابتسامته بابتسامة عريضة. الدموع التي كانت تتلألأ في عينيه انفرطت مسبحتها الآن وسالت على خديه. لاحظ المجبراتي ذلك وهو يهم بالانصراف، لكنه لم يعلق...

في الداخل، كان عثمان يأمر زوجته ألا تدع عزيزة تخرج بعد الآن مع أولئك النسوة لزيارة المقابر.

***

كان جنيد قد ترك "عليّ" بين يدي عثمان المجبّراتي وقفل عائدا. لم تكن "سيارة أبو هشيمة" قد وصلت بعدُ إلى مقرها الدائم تحت شجرة الدوم، بالمواد التموينية المدعومة وغيرها من السلع. دخل زقاق الماء

وهو يفكر فيما حدث. ما الذي سيكون عليه الحال يا ترى لو كان النجَّار قد لمح الكسوة الخضراء بحوزته؟ هل سيقبله الناس ثانية بينهم؟ إن النجار لا ينفك يثرثر في الأمور الهامة والتافهة، ولن ينغلق فمه حتى يعرف الجميع بأمر سرقة كسوة الضريح ونذور الشيخ. يبدو أن شيئا ما أمره أن يتأملها، يقترب منها، يتحسسها، يشم رائحتها، ثم يرفعها من مكانها. سَاعَدَهُ لونها الأخضر، المحبب إليه في الاستيلاء عليها على الرغم أنه لن يستخدمها ولن تفيده في شيء.

عِنَب المِيّنْين

يظل الإنسان ـــ مع مرور السنوات ـــ يجمع ذكرياته، واحدة فواحدة، كما يجمع فقيرٌ بقايا السنابل المُبعثرة، من حقول الناس، بعد الحصاد. يحاول التقاط ذكرياته من أغوارٍ بعيدة، وعندما يصل إلى الجذور ليقبض عليها، يجد أنه قد تخفَّف منً جسده واستعاد روحه. في تلك اللحظة الفارقة، التي يعرف فيها نفسه تمامًا ويستطيع أن يزنها، يجد أن حياته قد انقضت.

تمر الحياة كما يمر غريبٌ أمام أحد الدور. يمر طامحًا أن يراهُ أهل المكان ويدعونه للدخول، ليشبع جوعه أو ـــ على أقل تقدير ـــ ليحظى بشربة ماءٍ تروي ظمأه. يمر وهو يمني نفسه بأن كل ما طمح إليه سيتحقق لا محالة. لكن الحقيقة أنه لا شيء قادم.

يمر العُمر خلسة دون أن يتحقق شيء، بينما لا نكاد نلتفت أو نتوقف لنلقي نظرة إلى داخل أغوارنا العميقة. أنت تعرف أن شجرة الحياة لن تظل نضرة على الدوام؛ شجرة الحياة العملاقة التي تنتصب داخلنا واثقةً أنها ستظل هكذا إلى الأبد.

منذ تلك اللحظة التي نخرج فيها عنوة إلى العالم، تأخذ شجرة

الموت الصغيرة في النمو، التمدد، التعملق، بينما تأخذ شجرة الحياة في التضاؤل، الضعف، التقزّم، حتى تغدو - إلى جوار شجرة الموت- نبتة لا تكاد تحتل مكانًا في المشهد.

مثل طائر صغير يتخبط مذعورًا في الريح، تفرّ الأيام والسنوات، بينما نحاول أن نقبضً عليها، نستبقيها بكل ما أوتينا من قوة، وهي تتفلَّت من بين أيدينا كما يتفلَّت الماء من بين أصابع ظامئ.

***

مات "أبو هشيمة" ووري التراب. كانت ظهيرة لاهبة، ومنطقة المقابر تخلو من أي أثر للظل؛ فلا أشجار تتخللها، سوى نباتات الصَبَّار الكالحة ـــ التي تشبهً في غلظتها وجهامتها الموت نفسه ـــ وبعض شجيرات "عنب المَيّتِين" التي ما أن رآها الأطفال ـــ الذين كانوا ينطلقون في أثر المشيعين بينما تمتلئ حناجرهم بضحكات وصرخات فرح ـــ حتى ابتدروها. كانوا يعتقدون بأنهم سيحظوا بثمارها الشهية، لذا نبشوا أوراقها؛ قلبوها وعدلوها دون جدوى، فشجيرات عنب الميتين لا تثمر في الصيف. عادوا يجرّون أقدام الخيبة، بينما قفزت إلى أذهانهم ذكرى التقاط ثمارها السوداء، وشعروا باختلاج اللعاب تحت ألسنتهم. هكذا وقفوا في مؤخرة حشد الرجال المتحلقين حول القبر، نادمين على تكبدهم عناء المشي كل هذه المسافة بلا فائدة، ودار في خُلدهم ـــ في ذلك اليوم ـــ أن لو كان "أبو هشيمة" قد مات في فصل

الشتاء، لاستطاعوا التلذذ بثمارها الحمضية الصغيرة، المليئة بالبذور.

ناس الواحة ينسون الموت لسنوات، حتى إذا ما غافلهم بكسر حائط الرتابة التي يتقوقعون داخلها، غرقوا فَزَعًا في دوامة من الهرج والمرج والسخط وعدم الاقتناع بما يحدث، بل يصل الأمر لدى النساء، في بعض الأحايين، إلى ذم الموت، ومعاتبة مالك الأنفس، الذي له وحده الأمر.

مات "أبو هشيمة" دون أن يرى ولديْه؛ كانا في الغُربة، وكان يبادلهما الرسائل على فترات متباعدة، لكن رسائلهما انقطعت في الأشهر الأخيرة من حياته، حتى أن "عابد" مَلَّ من إلحاحه. كان الرجل يُرسل في طلبهِ كل أسبوعين تقريباً ليكتب إليهما؛ يطلب منهما العودة على وجه السرعة. ربما كان يشعر بحلول النهاية، فالموت، على كل حال، يحدث داخلنا؛ تستسلم المشاعر أولًا، يتلاشى الأمل، ثم نلمح حافة الهاوية، ذلك الممر المعتم الطويل الذي ينتظرنا فاغراً فاه. عندئذ، تضرب أرواحَنا الجريحة ريحٌ جافة وغريبة علينا. نجلس، في أيامنا الأخيرة، في وحدة هادئة وصافية، تراودنا الأفكار التي شغلتنا، ثم نسيناها مع مرور الزمن. نستشعر تفاهة الأحلام العظيمة التي لهثنا في أثرها ولم نلحق بها. هكذا تنتهي بنا الرحلة في وحدة عميقة الظل، تلك الوحدة التي تبدأ عند حدود الصحراء ولا تنتهي أبدا.

كان عابد يكتب الرسائل بقلم "كوبيا" بعد أن يبلل بلعابه سِن القلم لعشرات المرات في الرسالة الواحدة. تلونت شفتاه ولسانه بلون هو

أقرب إلى لون الباذنجان الناضج، بل إن رجال الواحة قد أرجعوا سبب تلك اللوثة ـــــــ التي أصابت عقله فيما بعد، قبل أن يعبر الممر الصخريّ إلى "وادي النوم" ويختفي ـــــــ إلى ذلك الحِبْر الذي كان يتسرَّب إلى حلقه، ومن ثَم إلى معدته. اختفى عابد، في مساء يوم بعيد، تاركًا ابنته الصغيرة التي أنجبها في أواخر أيامه وزوجته لتتكفل الحياة بهما. اختفى عابد مُخَلِّفًا وراءه حكاية مستغلقة، ونصف قلم "كوبيا" لم يجد من يقبض عليه من بعده.

ابنا "أبو هشيمة" لم يعودا في الوقت المناسب، كي يلقيا عليه النظرة الأخيرة رغم أكوام الرسائل التي أرسلها إليهما؛ ذلك لأنهما لم يعرفا، وقتئذ، أنه فارق الحياة. كان أمامهما أسبوع وربما أكثر، إلى أن يصلهما النذير. أما ابنته هشيمة فقد وصلت من بيت زوجها وقد ابتلَّت عرقًا وغطى التراب الناعم ملابسها السوداء. وصلت مكدودة، مستهلكةً كل مخزون قواها تقريبًا في البكاء واللطم والولولة طوال الطريق. وعندما اقتربت من مدخل الزقاق اندفعت ناحية البيت ونواحها يصم الآذان.

حملَهُ الرجال على أعناقهم بينما يهمسون بالدعاء والذكر، متجهين به غربًا، إلا أن النعش كان يُرغم الأقدام، بين لحظة وأخرى، على الانعطاف يمينًا أو يسارًا أو يجبرهم أحيانًا على التوقّف، كأن قوة عظيمة لا قبل لهم بها تشدهم إلى الخلف. قال أحدهم إن المرحوم يبحث عن

ابنيه الغائبين وسط موكب المشيعين، يتلفَّت عله يلمح واحدًا منهم قبل أن تنتهي به الطريق إلى القبر.

لم يكن يُسمع سوى خفق نعال الرجال، حفيف ملابسهم وهمساتهم بينما ينقضّون على دعائم النعش المصنوع من جريد النخل وأفرع الشجر، والمكشوف من أعلى نحو السماء. يتسابقون في حمل جسد الرجل الذي طالما زيّن أوقات القيلولة في السقيفة الظليلة بحكاياته. كان فوج النساء في الخلف بملابسهن السوداء المغبّرة على مبعدة من الموكب مثل قطعة ظلماء من الليل. يرفعن أذرعهن نحو السماء- كأنما يعاتبن الله- وضجيج نواحهن يسد الأفق.

كل الموتى يجتازون عتبة باب حياتهم القصيرة محمولين على الأعناق، ومتجهين غربًا حيث يمرون بالغابة الصغيرة. إنها آخر بقعة خضراء يمكن أن تقع عليها عيناك في الناحية الغربية، ومن ثم تبدأ الصحراء، حيث تحيط الكثبان الرملية، القادمة من الشمال، بمنطقة المقابر ـــــ كثبان عالية ومقوسة مثل مناجل الحصاد ـــــ بينما تأخذ الأرض في وعورتها وارتفاعها التدريجيّ جنوباً وغرباً في صحراء قاسية تمتد إلى ما لا نهاية.

***

كان الغبار يتصاعد من قلب دائرة مكتظة بالرؤوس المُنَكَّسة والأعين المبتلّة بالدموع حول القبر والأطفال يجرون هنا وهناك، حفاة الأقدام،

يتقافزون بين تلك المقابر التي كانوا لا يعرفون لها اسماً سوى أنها أبواب لبيوت واسعة تحت الأرض معتقدين أن الموتى الذين يُحملون إليها، يعودون فيها إلى حياتهم الطبيعية بعد أن يغادر الناس فيأكلون ويشربون ويتمتعون بحياة أجمل وأرغد. كان الرجال المتحلقين حول المشهد الذي يرهبهم ويُدمع مآقيهم يقفون متلاحمي الأجساد، كأنما يحتمون من الموت بأنفاس بعضهم البعض. كانوا جميعًا منكسي الرؤوس، بينما انطلق الأطفال يلعبون في أرجاء المنطقة غير عابئين بما يحدث في الجوار.

***

انطلقت الصرخة الأولى في البيت عند أوائل الضحى مخترقة سقف حجرته وهي تتلوى مثل دخان أسود وصاعدة في فضاء الواحة، تحملها الريح وآذان من سمعها إلى كل كائن يتنفس. لم يتوقع أحد أن الموت يمكن أن يباغته هكذا، دون مقدمات، وهو صحيح البدن. لقد خانه الموت. أخذه على حين غرة، وهو الذي كانت تهتز لخطواته الأرض.

يظل الواحد منا غافلاً عن مرور سنوات عمره التي تبعثرت منه خلسة في الدروب، حتى يداهمه المرض ليستيقظ من أحلامه الوردية على واقع مختلف؛ واقع يبدو في نظره كحلم، واقع قد مر وانقضى دون أن تكون ثمة حيلة في استرداد لحظة واحدة منه.

كانت الشمس قد جاوزت كبد السماء بقليل، عندما ظهر "عشومة العايق" على مشارف السقيفة الظليلة وهو يكبت دموعه التي ظلت

لامعة في مآقيه كي يخبر الجمع أن قد مات. اعتدل الرجال الذين اعتادوا على المقيل في ظل السقيفة وتبادلوا التظرات دون أن يجرؤ أحدهم على أن يتفوه بكلمة. ما من كلام يمكن أن يقال في حضرة الموت. كان عشومة وعبد الحكم الحدَّاد يقومان بتجهيز القبور لاستقبال الموتى: "أبو هشيمة" مات، قال عشومة ولم يزد، بينما رفع الحضور سباباتهم: "سبحان الحي الذي لا يموت".

كانا هناك، في ذروة الصمت، يعملان بأقصى جهد لهما. في البدء، أزاحا التربة الرملية المفككة التي تسد باب المقبرة. كان أحدهما يحفر بالفأس، ضاربًا الأرض الصمَّاء بقوة وحكمة، بينما يقعي الآخر وفي يده جاروف صغير يزيح به الرمال الساخنة بعيدًا عن المدخل. لم يكن يُسمع، في تلك الظهيرة اللاهبة، سوى صوت تنفسهما اللاهث، وصوت احتكاك أدواتهما بالرمال الخشنة التي تسد المدخل نحو الحياة الأخرى. سال عرقهما غزيرا، وهما يعدَّان المسكن الأبديّ لصاحبهما الذي فقداه منذ قليل.

في بعض الحالات تصبح آلامنا الداخلية كإبرة محمَّاة على النار ومسافرة في لحم الروح. يصبح الألم الداخليّ أشد وطأة من آلام الجسد. الحقيقة الأزلية التي نكرهها ونخشاها جميعًا هي أننا سنموت، بغض النظر عن فضائلنا أو شرورنا التي أتيناها في الحياة. ما من إنسانٍ إلا ويؤمن بالموت ـــــ الذي طالما أجّلنا التفكير فيه ـــــ كحدثٍ بيولوجي،

بل إننا على يقين بأنه ظاهرة مستمرة تحدث كل دقيقة في العالم، لكننا نتغافل عنه ونؤجل التفكير فيه كأننا ستحيا إلى الأبد. نحمل بذرة الحياة داخلنا ونعمل لها ومن أجلها، وفي المقابل نحمل بذرة الموت التي تكبر شجرتها في أعماقنا يومًا بعد يوم دون أن ننتبه.

وادي النوم

خرج عابد في أثر البقرة الوحيدة التي ورثها عن أبيه. الذين تفقدوا مربط البقرة، في آخر نهار ذلك اليوم، رجَّحوا ــــــ بعد أن رأوا المقود المقطوع ــــــ أن البقرة قطعت قيدها المتهالك وولَّت هاربة، وقالوا أيضا إنهم تفقدوا الآثار في منطقة الحظائر وما حولها جيداً وتتبعوا آثار الخطى الواسعة للبقرة المتجهة نحو الجنوب تركبها آثارٌ لمخالب حيوان يبدو أنه كان يتعقبها، وبالطبع كانت آثار أقدام صاحبها تركب الأثرين السابقين.

كانت الشمس قد قاربت على المغيب. بحثوا حتى تعبت العيون وخذلتهم الأقدام، فعادوا من بحثهم بقلوب منقبضة ورؤوس منكسة، وهم يضربون أخماسًا في أسداس؛ لأن الاتجاه نحو الجنوب يعني الخطر المحقق لذلك المتهور الذي اندفع في أثر بقرة واحدة. لكن، لا يقدر أحد أن يلقي اللوم على عابد، لأنه لم يكن يملك من الدنيا شيئًا آخر. كانت البقرة ــــــ التي ظلت لسنوات رفيقته الوحيدة في المراعي ــــــ هي إرثه وملكه الوحيد.

عندما أشرقت شمس اليوم التالي، خرجوا رجالاً وشباباً يبحثون عن الرجل. يتتبعون الآثار التي كادت رياح الليلة الماضية أن تطمس

ملامحها، بينما آلاف المشاهد المحتملة تدور في مخيلاتهم.

كانت الكارثة بالنسبة لفريق البحث في الاتجاه جنوباً؛ نحو ذلك الممر الصخريّ المفضي إلى "وادي النوم". يبدو أن البقرة لم تجد منفذا لهروبها سوى ذلك المدخل الممتد في استقامة على شكل جدارين شاهقين متوازيين. وفي الغالب أنها عبرته آمنة مطمئنة، والتخمين المرجّح أن تفكير الرجل كان منصباً على بقرته وعينيه لابد كانتا مثبتتين في الأرض؛ على تلك الآثار التي يتبعها بحرص وتركيز شديدين، ومن البديهيّ أنه لم ينتبه لدخولها، ومن ثم دخوله أيضًا ذلك الممر الصخري المفضي إلى البقعة التي تشبه، إلى حد كبير، مائدة صخرية واسعة ملساء، يحيط حدودها البعيدة جرفٌ صخري دائري الشكل ذو حواف شديدة الانحدار.

لم يدخل أحد ذلك الممر المفضي إلى وادي النوم من قبل وعاد من رحلته سالماً. كل الذين دخلوه ضاعوا في ذلك البساط الدائري الأملس ولم يجدوا منفذا للخروج. في الواحات، تنمو الكائنات والأشياء بصعوبة وجهد جهيد إلا الحكايات فإنها ما أن تخرج من الأفواه حتى تنمو، تتمدد وتتسع كبحر لا نهائي من الرمال.

قال بعض المعمّرين في الواحة، إن ذلك الأثر الدائريّ العجيب كان مهبطاً سريًّا للطائرات أثناء الحرب التي سمعوا عنها ولم يروها. عن أي طائرات يتحدث الأجداد، وعن أي حرب! وهم أنفسهم الذين قالوا

إنهم ما رأوا طائرة تحلق في أجواء الواحة قط؟! بعض الذين سخروا من أمر مهبط الطائرات ذاك، قالوا إنهم مازالوا يتذكرون حكايات أجدادهم عن كُتلة سوداء، لها ذيل من نار، سقطت من السماء في المكان ذاته، باندفاع رهيب نحو الأرض. لكن الذين لم يستسيغوا طعم الحكايتين السابقتين قالوا إنهم شاهدوا، بأم أعينهم، طبقاً فضائيا ـــ من عالم غير عالمنا ـــ يهبط في هذا المكان. لكن القلة الذين كانوا على علم بحكايات المؤرخين والرحَّالة القدامى قالوا إن ثمة مدينة شاهقة البنيان موجودة في هذا المكان. نبتت كزهرة وحيدة وسط هذه الفلاة. تختفي في الرمال نهارًا وتظهر ليلًا بمبانيها وأضوائها التي تخطف الألباب. مدينة لها أسوار من نحاس، تحرسها تماثيل مرصودة بسحر وطلاسم لا تُفَك، وحيَّاتٍ ضخمة. تظهر المدينة فجأة وتختفي مثلما ظهرت، بكنوزها المخبوءة وثمار أشجارها التي لم ترها عين ولا خطرت على قلب بشر.

قالوا" إن موسى بن نُصَير لما قُلدَ حُكم بلاد المغرب ـــــ في عصر حُكم بني أميّة ـــــ أخَذ في السير جنوباً قاصدًا الواحات؛ مهتدياً بالنجوم واتجاه الريح (وكان عارفاً بها) فظل سبعة أيام يسير بين مَهَبَّيّ الغرب والجنوب فَظَهَرَت له مدينة، لها حِصن عظيم، بأبواب من حديد، حاول أن يفتح باباً منها فلم يقدر وأعياه ذلك لغلبة الرمل عليها، فأصعَدَ رجالاً من أعلا الباب، فكان كل من صعد ونظر إلى المدينة وما فيها من خير، صاح ورمى بنفسه إلى داخلها، ولا يعلم القائد ماذا يصيبه ولا ما يراه، فلم يجد له حيلة في معرفة ما داخلها، فتركها

ومضى".

يبدو أن تلك البقعة الواطئة الملساء ـــ ذات الحواف الصخرية والشكل الدائري القريب من الكمال ـــ كانت مصدرًا غنيًا لحكايات كل الذين وقفوا عند حدودها، وحكايات الذين لم يصلوا إليها أيضًا. هناك؛ ينبع بئر الحكايات المتدفق من قلب الصحراء، ليصب في أعماق أودية الفقر والعوز وقلة الحيلة.

تصلبت الأقدام حيث انتهت الآثار التي كانوا يتتبعونها، وحيث انتهت كل آثار الغائبين من قبل، حاملة معها أحلامهم التي بترت فجأة. أجهدتهم الأفكار والتخيلات وتذكر من غابوا، سواء الذين عاشوا معهم أو الذين لا يعرفون سوى أسمائهم التي سمعوها في حكايات الأجداد.

المدخل الصخري هو المنفذ الوحيد إلى وادي النوم حيث يرتفع جداران صخريان شاهقان لا يفصل بينهما سوى مسافة لا تزيد عن متر ونصف. هناك وقفوا جميعا، وكانت نظراتهم تحملق في بطن الوادي متمركز على نقطة بعينها. تسمروا في أماكنهم فاغري الأفواه كأنهم تماثيل نبتت من الكتلة الصخرية ذاتها. حل عليهم صمت مطبق ولمعت أعينهم بالدموع. تحسبهم جميعاً وأرواحهم شتى. استداروا محاولين انتزاع أقدامهم ودفعها للتحرك نحو الواحة. عادوا أدراجهم ـــ بظهور محنيَّة وقلوب مضطربة ورؤوس منكسة ـــ مكبلين بالوحدة والخيبة.

في تلك الليلة التي عمها السكون، ساروا مغيَّبين عن الوعي تقريباً، حتى وصلوا إلى أطراف الواحة من الجنوب الغربيّ. كانت أضواء النجوم تنسكب حزينة على أوراق الأشجار الكثيفة، وكان حشدٌ من النساء والأطفال والعجائز يقفون منتظرين عودتهم غانمين سالمين. في ذلك البراح الذابل، في المنطقة الفاصلة بين الغابة الصغيرة ـــــــ حيث تتكاثف أشجار "البامبوزيا" ـــــــ ومنطقة المقابر؛ كانت نظرات الرجال تنحدر مع خطواتهم نحو الزوجة التي تتصدر الحشد منتحبة، كأنها كانت على علم مسبق بما سيكون.

عادوا دون عابد؛ دون الرجل الذي أراد أن يكمل حياته هنا في هذه البقعة الوحيدة التي يعرفها جيداً، والتي لم يغادرها قط ولم يعرف أرضاً غيرها. أيقنت طفلته الصغيرة حينئذ أنها أمست دون أب وبلا حماية فتمرغت على التراب الناعم صارخة ومبللة بالدموع. حملها أحد الرجال مخترقا الأجساد المتصلبة ومضى قدمًا إلى الأمام نحو الزقاق ثم تبعه الجمع بعد أن ترددوا قليلًا في مغادرة المكان. ظلت الزوجة بمفردها واقفة كشجرة وحيدة تنتظر بينما تضرب صفحة وجهها، المبللة بالدموع، رياح ساخنة قادمة من الجنوب. ظلت تنتظر إلى أن خارت قواها، إلا أنها تحملت، على أملٍ أن تنشق الأرض عنه في اللحظة الأخيرة، فتجده أمامها.

داخلنا، يورق الأمل، ويعرِّش مثل شجرة طيبة غُرست في تربة

خصبة، فننتظر وننتظر. لكن الانتظار كذبة كبيرة لا تحقق المعجزات. على كل حالٍ ستتوارى الآمال وتذبل، بعد أن نملّ الانتظار، ثم تموت في صمتٍ. تتحول الآمال إلى محض ذكرياتٍ نعلقها أمام أعيننا، مثل صورة قديمة بالأبيض والأسود، كل وظيفتها أن تهيِّج الذكرى في أعماقنا.

قطار الشلّال

وصل قاسم إلى المحطة التي سينطلق منها إلى واحته، ليكون بذلك قد قطع ما يقرب من نصف المسافة في رحلة العودة. من هنا، تنبثق طريق حديدية ضيقة، مفردة ووحيدة، تخترق الصحراء باتجاه الجنوب الغربيّ، لتصل، إذا شاء الله، إلى الواحات. هبط ـــــ مع زمرة من الركّاب ـــــ في المحطة التي تقع على أطراف العمران. يبدو أن كل ما يخص أهل الواحات يبقى دائما على الأطراف، بما في ذلك بلادهم نفسها. كان العم "عشومة العايق" يتندر على موقعها النائيّ قائلا إن الله قد خلقها بعد أن فرغ من خلق الكون والبشر. في كل بقاع العالم، تأخذ الأطراف غالباً دور المتفرج الذي ليس أمامه سوى أن يجلس في مكانه المعتاد، بلا زاد وبلا ماء، منتظراً أن تسبغ عليه الأماكن المتمركزة وسط التحضر فيض نعمها وبقايا حضارتها. ففي حين تضج الأماكن المركزية بالحركة والحياة، يزحف الصدأ والغبار نحو الهوامش المهملة والأماكن القصية، تاركاً أهلها بصدور منقبضة، تكاد من فرط شعورها بالإهمال أن تنفجر.

جال ببصره في المكان ولاحظ أن شيئاً لم يتغير فيه. ما زالت المحطة ـــ الواقعة في منتصف المسافة بين المدينة التي غادرها وموطنه الحبيب

ــــ كئيبة وفقيرة، تحيطها بيوت قديمة واطئة ذات أبواب ضيقة لا لون لها. تحت الإضاءة الباهتة للشارع الترابيّ المؤدي إلى المحطة، كانت أكوام صغيرة من القمامة ترقد مستكينة أسفل الجدران، وفي نهر الشارع ثمة صناديق ممزقة من الكرتون المقوى، شظايا زجاجات فارغة، بقايا صناديق خشبية، روث حيوانات، وبرك صغيرة من ماء راكد، تجمعت روائحها جميعا في أفق المكان لتصبغ الهواء بصبغة كريهة لم ينسها، فكان كلما هبت إلى أنفه رائحة مثلها في أيام غربته، قفزت إلى ذهنه ذكرى وجوده في هذا المكان المنفِّر. المحطة تشبه امرأة عجوز، متعبة ولاهثة الأنفاس.

لم يكن هناك شيء في براح هذه المحطة، سوى مظلة حجرية شبه مهدمة، وكُشك خشبيّ متهالك، ينزوي من ورائه، على استحياء، قطار صغير، لا يزيد عن ثلاث عربات.

ربما تعجَّل السفر لقصر ذات اليد، فلم يكن يعرف ما العمل الذي يمكن أن يؤديه ليوفر لزوجته حياة مناسبة دون أن يطلب مساعدة من أحد. ربما هي من ألحَّت عليه في السفر حتى لا ينكشف أمر حاجاتهما للمال فتتعرض لذلك اللوم والتأنيب، كأن رزق زوجها بيدها. فعلت ما طلب منها قبل مغيب شمس يوم الزفاف، ولم تقصر في شيء: غسلت قدميها ــــ كما العادة ــــ بماء أخضر، بعد أن قامت أمها بغلي حزمة صغيرة من البرسيم في قدر الماء حتى اخضرَّ لونه، ثم غطست قدميها فيه

وظلت على تلك الحال حتى سقطت الشمس فيها وراء الكثبان الرملية غرب المقابر. يتحتم على كل عروس أن تفعل ذلك حتى يصبح كعبها أخضر على بيت زوجها، فيغدق عليه الوهَّاب رزقًا وفيرا!

بعد انبلاج الفجر وقبل أن تبدو تباشير الصباح؛ كان قطار الشلال، قد استوعب الركاب في أحشائه متحفزًا لمغادرة رصيف المحطة وهو يزأر. سبعة من الرجال هم كل ركاب القطار الصغير، صعدوا إلى العربة الأولى في طمأنينة وبلا تزاحم وبذلك ظلت العربة الثانية خاوية. لم تكن العربة الثالثة مخصصة للركاب، بل كانت تحمل خزانًا اسطوانيّ الشكل (فِنْطاس) ممتلئا بالماء لتغذية الصهاريج (خزانات من المعدن) المنتشرة على طول الطريق. هذه الصهاريج التي تقع على مسافات متساوية على طول الطريق.

قبل أن ينطلق القطار بلحظاتٍ، كان الجميع قد أتخذوا مواقعهم جالسين على تلك المقاعد الخشبية المنتظمة في صفين على جانبي العربة. أغلقت الأبواب واستعد الجميع لتحرك القطار الذي بدأ ينفث دخانه الكثيف. خيمت لحظات من السكون والترقب على وجوه الركاب. تلك اللحظات التي تستعد فيها الأجساد والأنفس للانتقال من أرض إلى أرض أخرى قد تكون أقرب إلى القلب وأحب إلى النفس. لحظات لا يصلح معها إلا الصمت والخضوع لأنها تحمل من المعاني وفيض المشاعر ما يفوق الوصف، في تلك اللحظات، يتوقف التفكير في كل

شيء مهما كانت أهميته. يتكور العقل على نفسه مركزًا كل انتباهه على ذرة صغيرة قد لا ترى بالعين المجردة، لكنها، على صغرها ذاك، تحتوي العالم بما فيه؛ إنه ذلك الجزء من الثانية من لحظة الانتظار التي تسبق الانطلاق نحو ما نعشق وما نبتغي. في ذلك الجزء المتناهي في الصغر من عمر الزمن تكون الأرواح قد وصلت بالفعل إلى الأرض التي تجتذبها حتى قبل أن تتحرك آلة السفر.

عندما بدأ قرص الشمس يصعد الأفق، كان القطار يتوغل في فضاء الصحراء لافظًا كتلًا كثيفة من دخانٍ أسود مخترقًا ممرات ضيقة ومتخطيًا قممًا جبلية وسلاسل متتابعة من ربوات صغيرة تتناثر كيفما اتفق. يسير متحاملًا على نفسه ليهبط في انحدار الهضبة اللطيف نحو وادي الرفوف حيث الكثبان الرملية التي تقف شامخة متراصة في عرض الصحراء بينما يمر الخط الحديدي بينها، فيبدو القطار مثل لُعبة طفل صغيرة بين يدي طفل.. مر القطار بينها منحدرًا في بطء فبدت كأنها تتراجع إلى الوراء الواحد تلو الآخر، جدارٌ يتبعه جدار في مشهد لا ينفك يتكرر فارضًا رهبته على الركاب الذين أصابهم الاختناق والملل ومضت بهم تلك الساعات كسنوات.

وصلت الرحلةُ إلى حافة المنخفض التي تنحدر في انسيابية نحو القاع. إنها آخر نقطة تنتهي عندها الصحراء وينقطع عندها ذيل ذلك الجيش المنظم من الرمال وكأنها تم بتره بسكين لينفصل عن الوحش

الرهيب؛ ذلك الأب الذي أنجب كل هذه الكثبان، ثم ساقها أمامه لتتقدمه بمسافات منتظمة متجهة نحو الشمال الشرقيّ. من أعلى حافة المنخفض، تستطيع أن ترى ذلك الوحش الرابض على شكل قوس عظيم الامتداد، يدور مع دوران حافة المنخفض، محيطًا بالواحات الصغيرة المتناثرة في القاع والتي تبدو من أعلى مثل بقعة خضراء واحدة.

يأخذ الجزء الأخير من الرحلة إلى قعر المنخفض شكلًا مختلفًا. بعد أن اجتاز القطار منطقة الرفوف الرملية بلا عقبات، تقدم متهاديًا مع انحدار المنخفض اللطيف، فاسترخت مفاصل الأجساد المنهكة وانزاحت الرؤوس في تلقائية إلى الوراء وسُمعت التنهدات بينما كانت عبارات الحمد والثناء، التي خرجت من القلوب، تخترق سقف العربة المعدنيّ منطلقة نحو السماء.

توقف القطار، بعد رحلة طويلة استغرقت النهار إلا قليلا، عند مدخل واحة "دوش"، في محطة تُدعى "الغراب". ترجل الركاب، تلفتوا باطمئنان وتأكدوا أنهم يقفون على أرض ثابتة ذات نخل وماء، يستطيعون السير فيها أيامًا وليالي آمنين. ترك سائق القطار المكان في خفة، كأن أمر القطار لا يعنيه، ثم انحدر بحقيبة صغيرة في يده نحو النُزُل الصغير المُعد سلفًا للسائقين. كان نُزلًا مقفرًا إلا من فراش للنوم وآنية للماء ومكان لقضاء الحاجة، ولا شيء آخر. على كل حال، لا حاجة له بالنزل فشيخ هذه الواحة قد تعهَّد باستضافته وزملائه منذ

أول ظهور للقطار هنا.

نساء الواحة، بأعينهن العسليَّة القادرة على إشعال مصابيح القلوب، أطللن من فُرجات الأبواب ومن خصاص النوافذ، يتأملن القادمين. وانطلق الأطفال، بأقدام حافية مزينة بتشققات واسعة في الكعبين، نحو القطار الذي سيظل بهجة إضافية تضاف لبهجة ألعابهم إلى أن يبدأ رحلة العودة. إلى جوار مظلة فقيرة من جذوع النخل، بدأت معانقات الوداع بين العائدين وانتهت سريعًا ومن ثم ارتفعت الأذرع بتلويحات وإشارات. هكذا تفرق الركب في أرض الله، بعد أن قطعوا على أنفسهم وعودًا باللقاء مرة أخرى. هيهات أن تتحقق الوعود التي قُطعت على قارعات الطرق، وعند محطات السفر.

أمضى قاسم ما يقرب من نصف الساعة، على قارعة المدق الذي سيقوده إلى واحته، متلفتًا يمنة ويسرة. لا يمكن أن تصنع السماء معجزة من أجله، وتنشق الأرض عن سيارة تقله إلى واحته. لم يكن مستعدا للتفكير في شيء آخر سوى أن يستريح من وعثاء السفر. إن لم يجد سيارة سوف يتحتم عليه أن يقطع ما يقرب من أربع كيلومترات سيرًا على قدميه ليكون على بعد خطوات من شجرة الدوم.

وصُولٌ ومُغَادَرَة

-١-

وقف قاسم متأملاً قرص الشمس بحمرته القانية وهو ينزلق، بخفَّة، فيما وراء الكثبان الرملية التي تظهر كخلفية بعيدة لبيوت الواحة. كان قد أنزل حقيبته من السيارة التي أقلَّته من محطة "الغراب" حتى سلَّمته إلى نهاية المدَقّ الصحراويّ (على مشارف الواحة) لتكمل رحلتها بين الواحات الصغيرة المتناثرة، فتُسلم كلٍ من كابد في الغربة إلى أهله. كانت السيارة ترتج بشدة وهي تنازع الحُفَر الكثيرة والنتوءات الصخرية النابتة في مجرى الطريق فترتفع حقائب وأغراض الركاب عدة بوصات في الهواء وتهبط مرتطمة بقاعدة الصندوق مرة أخرى، محدثة جلبة تختلط بأصوات الركاب العالية التي تحاول أن تطغى على صوت المحرك دون جدوى.

استدار (عندما زأر المحرك القديم) ليجد السيارة تمخر عباب الغبار الكثيف الذي خلفَتْه على مسافات قريبة من الأرض، عالقًا في الفراغ وممتزجاً بأشعة الشمس الحمراء ومتعرجاً مع المدق المحصور بين الكثبان الرملية والربوات الصخرية داكنة اللون.

كانت ذراع السائق (الذي لم يكف طوال الطريق عن الضحك وإلقاء النكات) تلوِّح له من نافذة العربة التي كانت تتأرجح صعوداً وهبوطاً مع وعورة الطريق.. أخذت أصوات الركاب (في الصندوق المعدنيّ الصدئ) وضحكاتهم، التي صفت للحياة، تخفت رويداً، رويدأ كلما ابتعدت العربة.

كل ما استطاع فِعلهُ، في ذلك الوقت، هو تحامله على نفسه ومحاولة الوصول، بحقيبته الثقيلة وجسده خائر القوى إلى شجرة الدوم التي تراءت أمامه مثل أم حنون تفتح ذراعيها لاحتضانه. كانت البيوت القليلة المتكومة فوق الربوة والكثبان الرملية، وغابة النخل، وشجرة الدوم التي يبدأ عندها الزِقاق الشرقي للوطن قد اصطبغت كلها بلون برتقاليّ ضارب إلى الحُمرة، بينما تناهت إلى أذنيه أصوات دواب وأغنام وماشية وطيور داجنة، ونقيق ضفادع، وصرير حشرات الليل في معزوفة ساحرة، طالما اشتاق إلى سماعها.

هرب نور النهار، وابتدأت ظلمة الليل تدنو عندما سقطت الشمس فيما وراء البيوت المتلاحمة فوق الربوة. بدأ الليل ينشر غطاء عتمته في الأفق، وظهرت أضواء شاحبة تطل على استحياء من نوافذ البيوت الضيقة.

هجم الليل فجأة دون أن يترك لك فرصة للتهيؤ. حاول أن تضيِّق من حدقتي عينيك قليلاً، لتكتشف حدود المدق الذي بدأ يضيق كلما

توغلتَ في العمران. يهجم الليلُ (بكل معاونيه) فجأة، بينما تتحول رقعة السماء، أمام عينيك، إلى الأسود الداكن. يبزغ (في الوقت ذاته على استحياء) ضوء نجمات هنا وهناك. تخفت أصوات الحيوانات التي تحبها، ليصم أذنيك نباح يأتي من أنحاء متفرقة، فيعيد إلى ذاكرتك خوفك القديم من الكلاب. قلبك الذي تزايد خفقانه (منذ قليل) فرحاً، يتزايد خفقانه الآن قلقاً واضطراباً. أظنك كبرت على ذلك الخوف الآن.. تهدأ قليلاً عندما يمتلأ أنفك بروائح لنباتاتٍ عِطريَّةٍ تنمو على حواف المزارع. يقتلك الإجهاد وأنت تجرّ قدميك نحو شجرة الدوم. تنصتُ إلى صوت الكون يسري في عروق الأشجار. تشعر به في حركات الأغصان الحثيثة، في الهواء وفي أصوات الهوام التي تزحف بين الأوراق الجافة المتناثرة هنا وهناك. يمتلأ أنفك بتلك الرائحة الأفضل على الإطلاق، تلك الرائحة التي كنت تجترها في الغربة وأنت تجلس ساكناً، مغمض العينين فينزاح الواقع تماماً، تطوى لك الأرض لتجد نفسك بين جذوع النخل، تخوِّض حافياً في الأرض المرويّة حديثاً فيسري في أوردتك فرح الأشجار بالماء ويمتلأ أنفك برائحة الطين وعيناك باللون الأخضر الممتد إلى ما لا نهاية.

عندما غادرتَ الواحة؛ بحثاً عن فرصة مناسبة للحياة، انتابك أحساسٌ عميقٌ بأنك نخلةٌ انتُزعَتْ من منبتها انتزاعاً. انقَطَعَتْ عنكَ أخبار الواحة وأُغْلِقَ دونك الطريق الذي يربطك بها رغم أنك كُنت، في الغربة، مع زمرة من بني طينتك؛ من أهل الواحة الذين لم يجدوا مبرراً

يدعوهم للبقاء بين جدران الصحراء جياعاً، فاقدي الإرادة، ومكتوفي الأيدي.

❋❋❋

كانت شجرة الدوم تقف باسقة أمام عينيه مباشرة. أطال النظر إليها ثم أغمض عينيه محاولاً أن يعب كل الهواء المحيط بها؛ يأخذه بين جدران رئتيه. إنها تشبه زوجته رشيدة في قوامها الممشوق. طيفها الذي كان يومض بين جفنيه وهو في الغُربة يشعر به الآن؛ دافئاً، حيّا، ومتمثّلاً بقوة أمامه، بل إن العتمة، التي ما انفكت تزحف منتشرة شيئًا فشيئًا في أرجاء المكان، قد ساهمت في ازدياد وضوحه وسيطرته التامة على حواسه.

يتقدم ببطء، مخترقاً الخلاء الذي تتناثر فيه أشجار الأثل والسنط والنباتات الشوكية والعشب قاصداً ذلك الحجر المستطيل الذي يقبع متلهفاً، منتظراً أي مخلوق، يؤنس وحشته في مثل هذا الوقت الذي لا يخرج فيه أحد من بيته. تتملكه رغبة في احتضان النخل والطيور والأحجار، في تقبيل تلك المواقد الحجرية التي ترقد في استكانة أسفل شجرة الدوم وأشجار السنط التي تحيط بها. تلك المواقد التي تعيده إلى ليالي الصخب والجنون وقت الأعراس عندما كان يهرول مع رفاقه في الخلاء الواسع. يجمعون الأحجار التي تصلح لصُنع المواقد. يحملونها على كواهلهم. يتنافسون في حمْلِ أثقلها، بينما يرن في آذانهم صوت

الطبل الذي يغرِّد مختبئا داخل قاعات البيوت؛ فيتخيلون الفتيات اللواتي يتوسطن حلقة النسوة، يشعلن الجوّ بهزّ مؤخراتهن والتفنن في إبراز صدورهن الطافرة حديثاً. أحجار مستطيلة ومشذبة كأنما قُدَّت بمعول، تظل لفترة مكانها ثم تختفي بالتدريج لأن الناس يأخذونها إلى منازلهم لاستخدامها في أغراض مختلفة ووقت الأفراح يؤتى بغيرها.

ها هي أخيرًا، شجرة الدوم التي كانوا يتسلقونها أيام طفولتهم عندما تثمر ويلعبون في ظلها لعبة البيوت؛ هي لعبة الوطن الكبير ذاتها التي يلعبها الآباء والأجداد بجدية ومهارة وجهد أكثر. كانوا يقطفون الثمرات قبل أن تنضج. يجمعونها في أكوام، ثم يثقبونها بأشواك متينة من جريد النخل اليابس ليشربوا ماءها ويعطوا زوجاتهم الصغيرات ليشربن معهم ما في جوف الثمار من عصارة لذيذة، بعدئذ يقطعونها بالمناجل: كل ثمرة إلى نصفين، يستخرجون قلبها الأبيض ويأكلونها... مرَّت الأيام، وقتئذ، صافية تحملهم على أجنحة بيضاء ناعمة حتى كبروا واكتشفوا أن الحياة قد خدعتهم. أرغمتهم على التصديق بأن بهجتها سوف تستمر للأبد. لم يعرقل انسيابية مرور الأيام بذلك الشكل سوى يوم واحد تمزق فيه جلباب قاسم وهو يصعد شجرة الدوم للمرة الأولى محاولاً قطف ثمارها. كان بطبيعته يخاف صعود النخل والأشجار والقفز على الأسوار. في ذلك اليوم، شُق الجلباب من طرفه حتى أعلى الركبة بعد أن علق في أحد الأغصان الجافة بالشجرة وجرحت ساقه فتدلّى في حذر وهو يبكي. ضربه عبد الحكم الحداد في ذلك اليوم علقة ساخنة.

غادر قاسم الواحة، بينما كان فمُ الجوع يزداد اتساعاً، اصطدمت أحلامه بحائط قاس وارتدت إليه؛ فأربكت تفكيره وأفقدته توازنه. قَلَّت مياه العيون، وتقلصت مساحة المزارع، فانشقت الأرض عن أناس يتنقلون بين الواحات، لا هَمّ لهم إلا سرقة الأقوات والتحايل على خلق الله. كان كل ما يراه حوله يبعث على القلق، ويدس بين ضلوعه شوارع مهجورة ومناطق نائية. المدن البعيدة أكثر ازدحاماً، لكنها خالية من الإنسانية، متاهة تنتهي إلى طرق وعرة وصراع مُهلك من أجل لُقمة العيش.

المدن البعيدة بلا حقول خضراء تبدو في الأفق، بلا ابتسامات أناس تحبهم ويحبونك بصدق. هيهات أن تستمع في الغُربة إلى صوت خرير الماء في المجرى الضيق، أو تستمتع بالظلال الوثيرة للأشجار وقت القيلولة إن كان ثمة قيلولة هناك، لن تستلقي، فارداً طولك، على الرمال الباردة ووجهك للسماء؛ لينعكس ضوء القمر الساحر على حدقتيّ عينيكَ؛ فهناك لن ترى رمالًا ولا ضوء قمر.

كانت الظلمة قد ملأت المكان وتحولت عيناه إلى عيني كائن ليليّ لا يأبه بالعتمة، بل يستطيع التغلل داخل سراديبها بكفاءة... لم يكن قاسم لينتبه إلى وجوده لولا نهيق الحمار الذي كسر سكون الليل القاتل.

كانت الحشائش الجافة تحتك وتعلق بطرف ملابسه، فتحدث أصواتاً خشنة، تهزّ هدوء الليل. لا ينكر تلك الرجفة التي أصابته عندما

ظهر ذلك الشخص ودابته كشبحين متشحين بالأسود العميق عند فم الزقاق. قُبيل أن يظهرا بلحظة صم نهيق الحمار أذنيه وفرَّت الطيور الهاجعة في أوكارها مرتبكة متخبطة كأن كل جوارح الصحراء تنشب مناقيرها المدببة في أجسادها. أيقن حينئذ أن ثمة من يتنفس في محيط شجرة الدوم غيره. كان يحب رفرفة الطيور إلا أن رفرفة هذه الليلة أشعرته بالانقباض، رغم أنه لم يخف العتمة يومًا ولم يخش أن يضيع في وادي النوم كما ضاع خاله، وكما ضاع "عابد" وغيرهما. ذلك الوادي الذي كانت الأمهات تخوِّف به أطفالهن كي يمتثلوا طائعين...

***

لا شك أن نهيق الحمار المفاجئ قطع عليك حبل ذكرياتك، إلا أنك لم تتحرك من موقعك فوق تلك الصخرة المستطيلة أسفل شجرة الدوم؛ فقط، ثنيت جذعك للأمام قليلاً ملتفتاً في اتجاه مصدر الصوت الذي حددته في سهولة؛ إنه يأتي من وراء جذع ضخم لشجرة سنط جافة، تقع على حدود الخلاء المحيط بشجرة الدوم من الناحية الشمالية. امتدت يدك، في عفوية، تبحث عن الحقيبة. احتويت مقبضها بين أصابعك وظللتُ ساكناً لا تبدي حراكاً. صوت تنفسك، قد خفُت تمامًا. تدقق النظر محاولًا اختراق الظلمة الكثيفة. ثمة شبح لرجل طويل يتقدم دابته، يمشي في اتجاهك هادئا خفيفًا كأنه طيف. تراه يتلفت يمنة ويسرة. يقف قليلًا كأنه ينصت. يتحرك في خط متعرج؛ محاولاً أن يتفادي جذوع

الأشجار وأغصان النباتات الشوكية. يمرّ في براعة كأنما اعتاد السير في هذه المنطقة مرات لا تُحصى. طريقة مشيته وطوله البائن ينبئان بأنه غريب عن الواحة التي تحفظ ملامح سكانها القلائل عن ظهر قلب وتعرف كل نفْس فيها. انتصب جذعك بلا أدني ضجة، وقفتَ تراقب الموقف. وقْع حوافر الحمار على الأرض وصوت تنفسه المرتفع يدلاَّن على ثقل حمله. سيطر عليك شعورٌ بأن ثمة خطأ فيما ترى: خروجه في مثل هذا الوقت الذي لا يخرج فيه أحد، طريقة مشيته، تلفته الدائم، وثقل حمل دابته.

ما حدث يوم سفره يحدث الآن. لم ينس بعد أطياف ذلك الموقف، بل إنه كاد أن يسمع صوته ذاته قبل السفر وهو يزعق: "هوووي، من هناك؟". ويأتيه الرد: "أنا غريب عن هني". أخذ قاسم نفساً عميقاً عندما اكتشف أن الشبح الذي يقف على مبعدة منه بخطوات آدميّ مثله. كان قاسم قد قرر ألا يفتح حوارًا مع الغريب، لكن فضوله دفعه أن يسأله عن اسمه، وعرف أنه "جُنيد البريّ"... ما هذا؟! كأنه يضغط زر المُسجّل فيعيد عليه ما سجَّله قبلًا. انتابته ارتعاشة عندما جاءه الرد: "أني غريب عن هني". ما هذا الذي يحدث له؟ ربما يتخيَّل ما حدث قبلًا، خاصة أنه قضى ما يقرب من ثماني عشرة ساعة لم ينعم خلالها بساعة واحدة من النوم المتواصل. إنه في تمام تيقظه بلا شك. ما هذه الورطة! تعجَّب من ذلك الإحساس الذي سرى في جسده كمخدر وأربك تفكيره. كأنه أنقسم على ذاته إلى شخصين متماثلين وقد وقف

أحدهما يراقب الآخر منتظرًا ردة فعله تجاه ذلك الموقف الذي ابتدأ يجزم أنه يكرر نفسه. وقف قرينه يدقق النظر في تلك اللوحة التي شاهدها من قبل. إنه ذات الشخص، بطوله الفارع، ساحبًا حمارهُ خلفه. ثمة تغيير طفيف طرأ على مواقع الشخصيات، في هذا المشهد المعاد. يقف قاسم عند فم المدق الشرقيّ بدلًا من الغريب، في حين يواجهه الغريب مغادرًا الواحة، لقد حدث هذا المشهد معكوسًا قبل سفره بحثًا عن عمل، إضافة إلى أن الوقت كان فجرًا عندما خرج قاسم من الواحة لكن عودته كانت بليْل. إنه تقريبًا الصوت ذاته الذي سمعه من قبل، بيد أن نبرته الواثقة التّي كانت، قد تبدَّلت فخرج صوته مترددًا قلقًا وخائفًا. لماذا صار كل شيء غائمًا وملتبسًا إلى الحد الذي يشعر معه بأنه انقسم بالفعل إلى شخصين. كان أحدهما قاسم الذي انغمس لاهثًا في دروب المدينة الملتوية ومنحدرات طرقها، أما قاسم الآخر فكان ذاك الذي يقف قابضًا على حقيبته، ثابتًا في مواجهة الموقف، ومشتاقًا إلى الواحة وناسها. لقد تعرَّف قاسم على ذلك المشهد، الذي حدث بكل تفاصيله الدقيقة في السابق، وتأكد أنه هو الذي شارك فيه، وليس أحدًا سواه.

ما من أحد إلا ومرّ في حياته حدثٌ يتشابه قليلًا أو كثيرًا مع ذلك الذي تعرَّض له قاسم. قد تسمع جملة من شخص فينتابك شعور شبه مؤكد أنك سمعت هذه الجملة من قبل، سمعتها من نفس الشخص، في نفس المكان وبنفس الترتيب، وبنفس النبرة أيضًا. كما أنك قد ترى

شخصًا فتجزم أنك رأيته من قبل. إن ما حدث في حياتنا في الماضي وما يحدث الآن قد يحدث فيما بعد بالطريقة نفسها مُكررًا نفسه إلى الأبد.

***

لقد أدرك قاسم أنه لا شأن للناس هنا بنحيب العالم المزدحم هناك. يعيش الناس هنا في مدينة مسحورة لا تظهر إلا لمن يؤمن بها، تعطيه خيرها دون حساب وتحفظ سره. عند شجرة الدوم يبدأ الزقاق الذي يخترق البيوت صاعدًا إلى سدرة الربوة. لم يقاوم تلك الريح القوية التي بدأت في تحريك رمال الذكريات نحو تلك السنوات البعيدة، لتأخذ بيده من جديد إلى ذلك البراح الذي كان عالمه الوحيد في سنوات صباه، إلى ذلك الضوء البعيد الذي ما زال يحتفظ بدفء الأنفاس، إلى حيث كان يبكي وهو يتضوَّر جوعًا في وقت كان فيه امتلاك طفل في مثل سنه لشريحة خبز كاملة يُعَد ترفًا. لقد ظلوا حفاة وأنصاف عُراه حتى راهقوا واسودَّت شواربهم ونبتت لحاهم، يعانون البرد وقسوة الظروف في تلك الأيام.

يسير منهوك القوى كأنما يزحف على بطنه وحقيبته الثقيلة تزيد الأمر سوءًا بينما رياح الذكريات تعصف داخله، تنكش سطح رماله متعمقة نحو القاع. يسير متلفتًا ومتطلعًا إلى الأضواء الخافتة التي تنبثق من خصاص النوافذ في الأعلى. تلك البيوت القديمة التي تُرى من بعيد كتلة واحدة وركام لبنايات متجمعة بعضها فوق بعض مثل هرم

مدرج، وما أن تقترب حتى تتضح صورة البيوت الواقعة أعلى الربوة والمكونة من طابقين أو ثلاثة من الطوب النيئ؛ بيوت متلاصقة ذات حوائط مشتركة، تخترقها كوى صغيرة صانعة نوع خفيّ من التواصل بين تلك البيوت، وناقلة بعض الأسرار من هنا إلى هناك.

الأسطح المتجاورة متلاصقة أيضاً، فلا يميز بين سطح وآخر سوى سور واطئ من الطين، لا يرتفع عن نصف المتر، مغروس فيه سياج قصير منتظم من جريد النخل المقصوص. تسمح تلك الأسيجة (حيث توجد فتحات كثيرة بين أعواد الجريد) بممارسة التلصص، والتماس أسرار الآخرين في ليالي السمر التي يقضيها الأهالي فوق أسطح منازلهم صيفاً، فتختلط الحكايات والضحكات والتأوهات والكلمات البذيئة مع أصوات الطيور والحيوانات والطيور الداجنة في عزف كونيّ متفرّد.

تقع المنازل فوق تلك الرابية في كتلتين متقابلتين يفصل بينهما ذلك الزقاق الرئيسي الضيق، المسقوف معظمه. يمر الزقاق مثل خندق عميق ليشطر البيوت إلى كتلتين، صاعداً في نعومة من طرف الرابية الشرقي ومستمراً في صعوده اللطيف حتى يصل إلى ذروتها في المنتصف تماماً، فتراه ينزلق حثيثاً مثل نهر متعرج إلى الجهة الغربية ليصب على أطراف الغابة الصغيرة في الغرب.

نولد بقدمين حُرتين يحملاننا، عبر جسر الحياة، ويتحملان عنا. قدمان حُرتان مختلطتان بالتراب والطين ومعرضتان للشمس والهواء

أفضل من قدمين مكبلتين بقيود الحذاء يختنقان ببطء في رطوبة المدن وزحامها، بل ويتعفنان داخل جورب يبدو في ظاهره الروعة والأناقة. إن التناغم بين الإنسان والطبيعة لا ينمو إلا في بقاع شيَّدتها الفطرة وطهَّرتها أشعة الشمس الصافية والهواء النقي. لقد انبثقَ الغناء والرقص ـــــ الذي تعلمه البشر بعد ذلك ـــــ من هذه الأطراف المنسية دون غيرها. تعال لتنصتُ إلى غناء الأشجار حينما تطوحها الريح/ إلى ذلك العزف الجماعيّ للطيور/ إلى إيقاع الخُطى على الحشائش الجافة/ إلى صوت ترانيم الريح بينما تُصَلّي بين سنابل القمح الخضراء/ إلى تهدج أنفاس المناجل وهي تحتضن، في فرح طفولي، السنابل الناضجة في مواسم الحصاد.

ظل قاسم وأقرانه حتى سن الثانية عشرة دون أحذية في أقدامهم، بل كانوا يجهلون كيف تُنتعَل الأحذية، وما أهميتها أصلًا، إلى أن قرر عبد الحكم أن يشتري لابنه حذاءً، متكبدًا عناء السفر إلى المدينة البعيدة. أخذ مقاس قدمه بخيط أبيض كانت أمه تخيط به الأثواب التي مزقتها الأيام. لم يكن يعرف وقتها لماذا يلف أبوه الخيط بهذه الطريقة حول قدمه حتى عاد حاملًا بعض الحاجيات وصتدوقًا بنيّ اللون من الكارتون المقوّى. مد الحداد يده: "العلبة دي فيها شي لك". مد قاسم يده ليأخذها لكن الأب كان قد أعادها: "اجري اغسل رجليك الأول وتعال". طلب منه أن يغسل قدميه وينظفهما جيدًا فامتثل وهو يسأل نفسه لماذ يغسل قدميه فقط دون أن يستحم ومتى يفتح والده هذا الصندوق السحريّ ليرى

الكنز المخبأ داخله ويلمسه بيديه. انتعل الحذاء للمرة الأولى في حياته وخطى أولى خطواته به أمام البيت بينما يجرِّب ذلك الإحساس الغريب بوجود حاجز سميك بين باطن قدمه وتراب الأرض. مشي عشرات الخطوات ثم قفل عائدًا وهو يتأمل آثار الحذاء المطبوعة على التراب. كان منظرها ـــــ بين آثار لا تُحصى لأقدام حافية ـــــ رائعًا ومثارًا لفخره وغبطته. أحب انتعال الحذاء في اليوم الأول ـــــ كان ينحني حتى تكاد ذقنه أن تلامس التراب، يعد الخطوط ويتأمل النقوش التي انطبعت على الأرض ـــــ ثم زهده في اليوم التالي؛ فقد أحسّ عند انتعاله بأنه يختنق، ولا يستطيع أن يتنفس بارتياح. كان كما المقيد بسلسلة خفيّة لا تُرى. ثمة شيء ما يكبله ويحد من انطلاقه وحريته. خلعه من قدميه وأدخل فردتيّ الحذاء في يديه كالقفاز ودخل البيت حافيًا. كانت صُبح العرجاء تمط رقبتها، واضعة شفتيها في أُذُن والدته، وابنتها رشيدة تميل نحو أمها لترهف السمع. ألقى فردتي الحذاء بغيظ أمامهن كأنما يحاول التخلص من حِمل ثقيل ثم زفر: "أمي، أني طهقْت". ضحكت رشيدة يومئذ قائلة إنها لأول مرة ترى شخصًا ينتعلُ الحذاء في يديه. أهمل الحذاء لكنه ظل يحتفظ بالصندوق - الذي خطر على باله ذات مرة وهو في الغربة – كذكرى لأول وآخر هدية يفاجئه بها أبوه.

عمل قاسم أثناء غربته في جمع القمامة واستطاع أن يثبت جدارة ونشاطًا في عمله، فكان يصعد الدرج حتى الطابق العاشر ثم يهبط حاملًا على ظهره قُفَّة مُترعة بنفايات القوم، إلا أن الدرج الرخاميّ

الناعم كان، في باديء الأمر، يرهقه ويُحَمَّله جهداً إضافياً كي يستطيع الحفاظ على اتزانه دون أن ينزلق. كانت الأزمة الكبيرة في ذلك الحذاء الذي أجبرَ على انتعاله على الدوام. يحتاج المشي في هذه البلاد إلى قيدٍ وتحكّم في الأعصاب أيضًا، بيد أنه كان هناك؛ يمشي في الدروب والأزقة دون أن يكترث أين تحط قدمه الحافية. كان يمكنه المشي مغمض العينين فالأقدام تعرف التراب جيدًا وتحنّ إليه كما يحن إلفٌ إلى أليفه.

في اليوم الأول للعمل انتابه إحساس غريب بأنه لا يعرف المشي. يشعر أن قدميه لا تطاوعانه. ثمة صوتان في أعماق رأسه: صوت يلح عليه بألا يقبل بهذا العمل وآخر يلح عليه أن لا مفر منه في هذه الظروف حيث لا يوجد عمل سواه. ثمة أوقات لا يستطيع الواحد منا خلالها التحكم في مسيرة أو ظروف حياته. إن دروب الحياة لا تسير عادة على خط مستقيم، حتى وإن سارت كما ينبغي، فإن ثمة دروب أخرى سوف تتقاطع معها في نقاط كثيرة، لذا سيصبح من العسير علينا أن نحدد الطريق الصحيحة من أول خطوة. تواجهنا اختيارات شتى ومفترقات طرق، لكننا سنخطو أولى خطواتنا على أية حال.

كان متوترًا، قلقًا حيال أن يراه أحد من أبناء الواحة وهو يحمل "قفة" فوق ظهره قاصدًا صناديق القمامة. كانت نظرات أهل الحي ـــ أو هكذا خُيِّل إليه ـــ التي ترمقه بعدم اكتراث أو لنقُل بشيء من الاحتقار، تثير حنقه وتجعله يندم في اليوم مئة مرة لأنه قبل بعمل كهذا.

منذ اليوم الأول له في هذه المدينة وهو يشعر بشوق عارم للصحراء الواسعة والآفاق الرحبة والشمس الحارقة التي لم يعثر عليها هنا. لقد فكر، منذ اليوم الأول، أن يعود أدراجه، لكنه كان قد استراح لتوه من قسوة وجه الأب وسخريته الدائمة منه ومن خاله، ومن أعمال الحدادة من أساسها، كما أنه خاف ألا يتحمَّل نظرات الاستهزاء التي سوف تحيطه بكل تأكيد من القريب والبعيد. إن أقسى ما كان يعانيه في غربته هو ذلك الانسلاخ الفجائيّ عن الجبال والحجارة وصوت الريح والغبار والعُشب، عن الهواء النقيّ والأرض إذ تعبق برائحة الطين، إضافة إلى ذلك النداء الذي كان يتردد صداه في قلبه ولم يستطع يومًا أن يقاومه؛ كان كلما رأى امرأة قريبةٌ ملامحها من ملامح نساء الصحراء؛ انتصبت أمام عينيه نتوءات صخرية، ربوات وأودية، منحدرات وعواصف رملية ونخل يهتز في الريح، بينما يعتريه ذلك الدوار إذا ما ألقى بنظراته في عمق عينيها ورأى ذلك الدرب المؤدي إلى الصحراء مرسومًا أمامه.

تجبرك حياة المدينة على انتعال حذاء يجعل الدرج الرخاميّ أكثر انزلاقًا، فيرغمك على أن تحمل جسدك كله على أعصابك. تمشي وأنت تحسب لكل خطوة تخطوها ألف حساب بينما تمرق الحياة بكل أحداثها بالقرب منك؛ تستحثك على اللحاق بها فتفلت من قيدك ناثرًا الحذاء كيفما اتفق، وقبل أن تحصّلها تجد أنها قد غيرت وجهتها وتجدك وقد وقفت بين مفترق طرق، حائرًا لا تدري أيها تسلك. ها أنت قد عرفت أن المدينة كائن غير مستأنس، حيوان بريّ بمخالب جاهزة للانقضاض.

ها أنت قد عرفت أن خلف الملابس الملونة ونعومة الأسفلت وزحام الشوارع بيوت لا تتسع لأصحابها وقلوب ممشطة جيدًا وخالية من الأحلام. أنت لم تترك واحتك لتتفرج على نزيف الأقدام فوق الأرصفة الزلقة الباردة. واهمٌ أنت؛ ظننتَ أنك انسللتَ تاركًا الريح خلفك، لكنك اكتشفت، بعد أن تآلفت مع المدينة، أن ريح الصحراء ما زالت تعوي داخل صدرك. ليت الأمر وقف عند هذا الحد، لكنك جئت مشبعًا برائحة الصحراء، وانكسر ذلك القفل الصديء لصندوق ذكرياتك الصغير. منذ أن سكنتَ المدينة وقوافل الذكريات تزلزل كيانك كل يوم إذ تمر أمام ناظريك، تحملك معها إلى بيوت الطين، وأسقف القش والبوص، ورائحة الخبز الطازج؛ إلى حياتك التي كنت تظن أنك تكرهها. لم تكن تعرف أن الحياة في المدن رحلة هروب كبرى تبدأ ولا تنتهي أبدًا.

كلنا جربنا الشعور بالاختناق، انتزاع السلام الداخليّ؛ تلك الفجوة المخيفة التي تسقط داخل الروح وتعشش هناك صانعة حاجزًا شاهقًا وعزلة مفزعة تحيطنا رغم وجودنا في خضم بحر البشر المتلاطم في الشوارع والأسواق. أنت جربت ذلك الشعور مع تلك السيدة في الدور العاشر. كنتَ تُفرغ سلة القمامة، عندما ظهرَت في خُف حريري أحمر يضم قدمين في بياض الحليب. لمحتَ قدميها أولًا، وعندما اعتدلتَ رأيتَ سيدة في خريف العمر، تقف أمامك في ملابس البيت. أشارت إليك أن انتظر قليلًا. هي لم تنبس أو حتى تلقى عليك السلام. غابت

لحظات ثم عادت تحمل كلباً رماديّ اللون، له شعر طويل وناعم. كان ممداً بين يديها لا يبدي حراكاً كما لو كان نائما. قالت إنه كان غالياً وعزيزاً عليها و.... و..... ـ وبعد أن جلبت له الأطباء؛ مات وتركها بين جدران هذه الشقة الواسعة، تعاني الوحدة والألم!

كانت شمس تلك السيدة قد أوشكت على الغروب، وما تزال تحتفظ في أفق روحها بقليل من الضوء؛ ضوء التشبث بالحياة، ففي الوقت الذي أظلمت فيه كل سهول حياتها وذبلت الأشجار، ظلت قمم جبال روحها مضيئة بأمل ما، بشيء يمكن أن يعيش المرء من أجله، بأنفاس كائن حي تتردد بجوارها، حتى لو كانت أنفاس كلب.

أمرتك أن تأخذ كلبها ـــــ عليه رحمة الله ـــــ وتدفنه بيديك في مكان نظيف وهادىء يليق به. لم تطلب منك ذلك بأدب. استشطت غضباً، لكنك كظمت غيظك وعلى الرغم من أنك لم تحمل بين ذراعيك كلبًا في حياتك إلا أنك حاولت أن توصّل إليها ما مفاده أنه لا يجدر برجل أن يمشي في الشارع حاملاً بين ذراعيه كلبًا وعندما لاحظتَ تذمّرها، سحبت مما تختزنه من رصيد الصبر لديك وأفهمتها، بأناة ورويّة، أنه لا يُعقل أن تضع كلبًا ميتًا مع بقايا طعام الناس (نعمة ربنا) في قفة واحدة، وعندما سألتك أين هي تلك النعمة التي تقصدها، أشرتَ إلى بقايا الطعام والخبز التي ترقد في قُفَّة القمامة. بالطبع لم تعجبها إجابتك، فصححت لك ما اعتقدَت أنك أخطأت فيه: "دي نعمة ربنا؟ دي زبالة

يا متخلف". كان داخلك يأز مرجل من الغضب لكنك لم تنبس ببنت شفة. فقط، استدرت بعد أن حملت القُفَّة على ظهرك وهَممتَ بنزول الدرج.

كانت قد أغلقت الباب في وجهك قبل أن تتحرك من مكانك، وما أن هبطت درجتين حتى انفتح الباب مرة أخرى. يبدو أنه ما من سبيل آخر سوى أن تعالج ما انزلق إليه تصرفها بحكمة وذكاء وطلبت منك راجية أن تُمرّ عليها قبيل المغرب لأنها تريدك في أمر هام. قالت: " لو سمحت"، وقالت "لك عندي حاجة حلوة"، وأنت نظرت إليها نظرة تعني أن الكيل قد فاض بك، وهبطت الدرج الرخامي دون أن تشفي غليلها بإجابة واضحة.

قضيت الساعات المتبقية من النهار تفكر في "الحاجة" التي يمكن أن تمنحها لك امرأة مثل هذه، امرأة تظن نفسها من طينة أخرى، وربما من كوكب آخر، لكنك لم تأمن جانبها تمامًا، وفكرت كثيراً مانحًا تخيلاتك أقصى اتساع يمكن أن تتحمله، مفترضًا أجمل الاحتمالات، ثم أسوأ الاحتمالات، بينما هاجسك المسيطر عليك يقول: "ما في حيلتي شيء أخاف عليه، إيش ياخد الريح من البلاط"...، ضغطت زر الجرس. فُتح الباب، وبكل ما أوتي صوتها من أنوثة قالت وكانها تفاجأت بقدومك: "قاسم!! أهلًا وسهلًا، ثواني".

دعي الرجل في حاله يا امرأة، دعيه ينعم بالسلام بعيدا عنكن. لقد

هجرته الفراشات بألوانها الزاهية، وهجرهُ اخضرار الحقول. لم تعد شمس روحه تضيء إلا بقعة من الصمت في أعماقه. لا تضيعي جهدك سدى، فلن تصلح معه أحابيلكن التي كان أجدر بها أن تؤثر فيه في الليالي التي قضاها ناظراً إلى السماء الصافية المرصعة بالنجوم، أو متأملاً النباتات المزهرة في الحقول. لم يكن يرى في المدينة سوى زحام السيارات والناس. لقد وقف مشدوهًا وأراد أن يسجد لله شكرًا عندما رأى تلك الزهور لأول مرة؛ نباتات خضراء زاهية ذات أزهار حمراء تبدو كأنها قادرة على الكلام. رآها في أصص بلاستيكية معلقة أمام بعض المحال التجارية وأمام أبواب الشقق في البنايات الفخمة. ما كل هذا الاهتمام بالجمال؟ أعجبه اعتناء الناس بالورود، لكن الفاجعة الكبرى حلَّت فيما بعد؛ عندما اكتشف أنها زهور بلاستيكية لا حياة فيها. كان قد رأي وعرف وتعلم أن ثمة أشياء كثيرة في هذه المدن يمكن تزييفها، بل والتعايش معها في زيفها الجديد. لكن تفكيره لم يصل إلى تلك الدرجة من الشيطانية. ارتعش جسده، يوم أن لمس إحدى تلك النباتات وتأكد أن لا حياة فيها، ووقف مشلولا تقريبا من هول المفاجأة.

يبدو أن مشاعره لم تتحول إلى رمادٍ بعد، إذ أن مطاردة صغيرة من امرأة عجوز أربكته. مدت ذراعها بمطرقة صغيرة تنقر على باب صدره المغلق. تسمَّر في مكانه مرتجفًا. كانت تقف أمامه في ليونة نبات غض، في خفة ريشة. تبتسم له وكأن شيئًا لم يحدث. كانت قد خرجت مبتسمة واستأذنته أن ينتظر قليلاً، ثم عادت لتناوله علبة مغلفة تغليفاً محكماً

بورق "سيلوفان" لامع، مربوطة ربطة أنيقة بشريط أحمر رقيق. وطلبت منه ألا يفتحها إلا في البيت. مدت يدها تناوله الصندوق فتذكر أباه وهو يمد يده ليناوله صندوق حذاءه الأول: "خد، دي حاجة لك".

في حجرته التي يعيش فيها وحيداً، جلس القرفصاء. وضع العلبة التي كان يتأبطها طوال الطريق أمامه بحرص من يتعامل مع صندوق متفجرات. لم تعتد أصابعه على التعامل مع أشياء بمثل هذه النعومة، إضافة إلى أنها مهداة من امرأة كتلك. ارتبكت أصابعه، بينما تتحسس الأربطة الحمراء، وارتعشت أكثر من مرة، بيد أنه أفلح في النهاية. نزع الغلاف فظهرت علبة خضراء من الكارتون المقوى. لم يتبق أمامه سوى نزع الغطاء، كي يطمئن قلبه وتهدأ أنفاسه. لقد تخيل آنفاً كل الأشياء التي قد تُهدى في علبة كتلك، فيما عدا أن يجد داخلها كلبًا ميتًا ذو شعر بنيّ طويل وناعم.

تزوج رشيدة وما كان يخطر على باله أنه سيتزوجها في يوم من الأيام. كانت فكرة الارتباط بها بعيدة عن بؤرة تفكيره. أما عبد الحكم الحدَّاد فقد كان ديكتاتورًا، حَكَمَ عائلته، كما يقولون، بالحديد والنار. لم يجرؤ قاسم أن ينبس ببنت شفة عندما قرر الأب أن يزوجه رشيدة. قبل على مضض وفي نفسه شيء من مسألة الزواج! بشكل عام، ومن هذه الفتاة التي لهث ورائها كل شباب الواحة تقريبًا.

كانت شجرة عائلتها قد انقطعت تقريبًا ولم يتبق لها سوى أمها

العرجاء. هي ابنة "صُبْح" التي مات زوجها منذ سنوات في بلاد الغُربة وجيء به محمولاً في الصندوق الخلفيّ لسيارة "أبو هشيمة". قالوا إن عربة مُسرعة دهسته وهو يقطع الطريق حاملاً على كاهله نفايات المطعم الذي كان يعمل فيه. هكذا يأتي الموت سلسًا، وبلا مقدمات. إنها حكمة الرب في قبض أرواح المصطفين من عباده ولا يجوز الاعتراض عليها حتى وإن كان الميت رجلاً تقيًا مثل العم "جُودة" الذي لم تفته صلاة مكتوبة طوال حياته. من يستطيع أن يتفوه بكلمة إذا حلق طائر الموت فوق رأس رجل يعبر الطريق حاملاً وعاء ثقيلاً، مليئًا بمرق وبقايا سَقطٍ وأكراش ذبائح، ورائحة ملابسه المختلطة برائحة روث الحيوانات تنفر منها الأنفس على بعد مئات الأمتار.

-٢-

هل قرر جُنيد مغادرة الواحة بعد أن تضاربت مشاعره تجاه أهلها، أم بعد أن أحس بضوء ما قد بدأ في التوهّج داخله، تلك الشعلة الصغيرة التي تضيء الطريق للنادمين، فرأى جولاته الليلية ومداهماته ــــــ التي كان يعدّها انتصارًا في مرآة ذاته ــــــ وقد تكشَّفت عن حقيقتها وظهرت أمام عينيه في كامل ثياب الخزي التي ترتديها؟ ربما أعاد التفكير في الفضيلة التي كان يعتبرها محض خيال فأمسى غير قادرٍ على تحاشي نظرات الناس الذين أكرموه واستأمنوه وخانهم. ربما تكمن المأساة في ذلك الحب الذي تمكن من قلبه فبات متخوفًا من أن يقودهُ هواهُ إلى فجيعة. لقد أغوته "رشيدة" منذ أن رآها جالسة تمشِّط شعرها وساقاها يضيئان المكان.

إن صوتها الذي ما انفك يُسرف في غيِّه، بعد ان تنبهت لوجوده، عصف بعقله وسلِّمه إلى أحلام أيروتيكية أشعلت لياليه، وخرج منها مبللًا من لذة الحلم. ضاعفت تلك الأحلام إصراره فلم يعد يحترز عند دخوله الزقاق وداوم على زيارة سورها الواطيء بشكل يومي حتى حفظ مواعيد جلستها. لقد تأكد لديه أنها تعرف بمكان وقفته وتستعد لها، فقد تغير مزاجها وأضحى إيقاع صوتها أكثر رقة ونعومة بعد أن

كان مُشبَّعا بالهموم. ظلت تتجاهله، بينما تُمعن في تدللها حتى صار قلبه ألين من وردة حديثة التفتّح واحترق بتلك المشاعر التي يزفّها إليه صوتها كما يزف النسيم رائحة الحقول الندية في ظهيرة قائظة. امتد حبل الوصل بينهما دون أن تتفوه بكلمة أو حتى تمنحه نظرة، على الرغم من يقينه الذي لا يهتز بأنها تراه جيدًا، وترى تلك الفرحة في عمق عينيه وذلك الوله الذي يحطِّم قلبه فيسقط مدويّا متناثرًا إلى شظايا كما يسقط ماعون الماء الفخَّاري على أرض قاسية.

لقد أوصلته إلى الدرجة التي أقسم فيها أمام نفسه أكثر من مرة بأنه لن يهجر هذه الواحة إلّا عاشقًا ومعشوقًا أو قتيلًا. قاده قلبه إلى كل ذلك وما عرف يومًا أن من سبقوه إلى ذلك كُثر. فلم يعرف بأمر "سالومي" مثلًا حين رقصت أمام الملك الرومانيّ هيرودتس "رقصة الغلالات السبع". فكانت في كل استدارة لها تتجرَّد من قطعة من ملابسها، حتى ألمّ الدوار بهيرودتس وشغف قلبه بها فأمسى مثل خاتم في خنصرها حين مالت عليه متعمدةً إظهار مفاتنها وطلبت منه رأس القديس "يوحنا المعمدان" على طبق من فضة، فأتاها برأسه طبعًا. لقد مارست سالومي غوايتها دون أن تتعرى تمامًا حتى حصلت على رأس يوحنا المعمدان على طبق من فضة. فلو كانت رشيدة قد طلبت من جنيد حينئذ أن يقتل شيخَ الواحة لفعل ذلك دون تردد.

منذ متى وجنيد يفكر في مغادرة الواحة؟ لا نستطيع الجزم بتوقيت

محدد، لكن الأكيد أنه فكر كثيرًا قبل أن يغادر، واتخذ كافة احتياطاته بما في ذلك ما يعينه على قطع دروب الصحراء. كان لا بد له أن يغادر ما دام القدر يقود خطاه وأنه من المستحيل أن تجري الأمور عكس ما قُدِّر لها.

إن باب القدر الخفيّ ماثلٌ تحت قدمي كل إنسان، لكننا لا نعرف بوجوده على الإطلاق، حتى لو عرفنا فإننا لن نستطيع أن نعود أدراجنا خطوة واحدة. عاد قاسم بعد أن أغلق باب الغربة من خلفه وقرر ألا يعود إلى مثلها أبدًا. عاد فرحًا نافضًا عن كاهله ثقل الاغتراب، موليًا وجهه شطر الأرض التي وُلد فيها، في حين كان جُنيد مُشرَّدًا منبوذًا، بلا وجهةٍ أو هدف. أما عن وطنه، فلم يعرف له وطنًا، ولم يذق طعم الانتماء إلى ترابٍ ما.

***

كانت أعينهما قد أعتادت على الظلمة وبدأت ملامح كل منهما تظهر للآخر، عندما هَمّ قاسم بسؤاله: "أني ما شفتك قبل كدي؟". أجاب جُنيد بارتباك بادٍ بأنه من المستحيل أن يكونا قد التقيا من قبل، خاصة وأن "قاسم" كان غائبًا عن واحته. "وكيف عرفت إني ما كنت هني؟"، سأله قاسم، فأجاب "لو كنت موجود كنت ريتك في الرايحة ولّا في الجيَّة". ارتاح قاسم لهذه النتيجة التي توصل إليها جنيد. نعم ذاك هو الشخص ذاته الذي رآه داخلًا في فجر يوم سفره إلى المدينة. أراد قاسم، بأسئلته تلك، أن يعرف مدى صدق إحساسه الذي أنبأه

بأن الواقف قبالته هو الشخص ذاته الذي التقاه يوم سفره، فما أن رن في أذنيه الصوت حتى مثل أمام عينيه لقاؤهما السابق.

عاش كل منهما غريبا، في المكان الذي سافر إليه، تفصل بينهما مسافات هائلة وصحراوات مهلكة. فبينما عاش جنيد غريبًا في هذه الواحة، بين أهلها الذين تقبَّلوه على مضض، كان قاسم يقضي الفترة ذاتها غريبًا عن أهل واحته، بين ناس المدن الذين لم يخالطهم من قبل ولم يعرف طباعهم. لم ينس جنيد أن أباه حاول إقناعه ذات يوم بأن الحُريَّة بلا قيد تحت سماء الله أفضل من امتلاك بيتٍ مُغلق الحجرات. طالما اعترف جُنيد، أمام مرآة ذاته، بأن إصرار أبيه وحرصه الشديدين على دفعه إلى كُتَّاب الشيخ "أبو العيد" كان مضيعة للوقت، إذ ما العائد من تعلمه القراءة أو الكتابة إذا كان الرحيل المستمر هو الطريق الوحيد الذي يعرف كيف يعبره؟

لم ينتبه البريّ إلى أن ابنه الوحيد كان ناقمًا على حياة التشرد الذي يعيشه، بل إن قلبه كان يعج بالغيظ والكراهية تجاه كل الذين يستحقرونه؛ أولئك الذين يمتلكون بيوتًا يعودون إليها آمنين آخر النهار. كان جُنيد يشعر في قرارة نفسه أن الإنسان بلا وطن ينتمي إليه هو كائن بلا هوية، لا يعرف الوفاء، لا لأرضٍ ولا لبشر.

لقد ولَّت أيام الدفء يا جنيد منذ أن ماتت أمك، وحلَّت أيام الوحدة والعراء بعد أن مات أبوك، وها هي ذي الأيام تحشد كامل قسوتها

ضدك واضعة فوق كاهلك أكوامًا من الخزي والعار. وبدلًا من أن ترق القلوب لحالك، سخِرَت منك واستحقرتك. هل ستظل هكذا خاويًا من نعمة الشعور بالانتماء إلى بُقعة ما، من نظرات عطوفة وكلمات حانية تُشعرك بإنسانيتك؟ تنام في العراء، في حين تنعم الحيوانات بالدفء، وكل فصيلة منها موثوقة العُرى، بينها وبين بني جنسها رابطة لا تنقطع إلا بالموت، فما بالك ترقد في "خُصّ" من البوص والقش قريبًا من مقابر أمواتهم، وأكثر قربًا من حظائر ماشيتهم. ثم.. ما تلك النظرة التي قرأتها في عيني الشيخ "ونّوس" وقت أن رجوتَه أن يسمح لك بالإقامة في أي ركن منزوٍ، بعد أن شرحت له ظروفك حياتك؟ نظرة أشعرتك بأنك أقل من حيوانٍ أجرب. هل كنتَ مخطئًا حين فسَّرتها هكذا؟ حتى وإن كنت مخطئًا في ذلك الوقت، فالأيام التي تلت ذلك اليوم أثبتت لك صدق حدسك.

رحل جنيد بعد أن أوقع "رشيدة" زوجة "قاسم" في مصيدته. كان يؤمن في قرارة نفسه بأن الإصرار سيقوده حتمًا إلى بغيته إذا التزم الصبر والتأني؛ عندئذ سيقدر أن يحدق في أعينهم، أن يحاصرهم بوقاحةٍ ناثرًا في وجوههم ابتسامات مهينةٍ كان قد احتفظ بها لأشهر طويلة. لن يهتم كثيرًا إذا ما اكتشفوا وقاحته وتطاوله. ما الذي تستطيعه أيديهم وقد اقتحم عُقر ديارهم، وطأت قدماه قممًا عالية، وقبضت أصابعه في قسوة على ذراها وجاست خلال وديانها العميقة الدافئة. هذا هو يوم الربح الذي يعوض كل الخسارات ألحقها بنفسه، والتي أُلحِقَت به.

(ملحق قصير نُستَحَب قراءته)

انقطع طريق القطار الذي كان ممتدًا من المدينة حتى محطة "الغراب". ظلت الآلات تزيح الرمال بعيدًا كلما زحفت نحو القضبان بلا أمل في وجود حل آخر لتدفق الرمال اللانهائيّ. وقبل أن تنتصر الطبيعة على جبروت الآلات، كانت الحكومة قد رصفت طريقًا إسفلتيًّا يصل الواحات المتناثرة في الهامش بمدن المركز. كان "قطار الشلَّال" قد طمرته الرمال في منطقة "الرفوف". من سوء حظه وسوء حظ الأهالي أنه تعطل في تلك المنطقة ذات الكثبان الرملية المتراصة مثل جيش منظم. حدث ذلك ذات يوم هبت فيه عاصفة رملية لم ير الناس مثلها من قبل. كانت الدوامات الرملية المتتابعة تتصاعد حتى عنان السماء؛ وانتشر في الأفق تراب أصفر ناعم ومائلٌ إلى الحُمرة، أعاق الرؤية بشكل شبه كامل وانعكس على صفحة السماء فبدت حمراء قانية. في ذلك اليوم، أصيب الناس بفزع عظيم؛ تركوا حقولهم وماشيتهم ولاذوا بالفرار، بعد أن أُشيع أن القيامة قد قامت.

العاصفة القادمة من عمق الصحراء في الجنوب ـــــــ بعكس اتجاه الرياح السائدة في المنطقةـــــــ اكتسحت كل الواحات بلا استثناء، تاركة آثارها على الأشجار والمحاصيل والحيوانات لعدة أيام. الأسوء

من ذلك كله، كان تعطل القطار الذي علمت بأمره الشركة بعد مرور ثلاثة أيام، مات خلالها من مات، وتاه في الصحراء الواسعة كل من غامروا بمغادرة المكان بحثًا عن طريق آخر للنجاة. عندما وصل وفد الشركة إلى مكان الواقعة لم يجدوا شيئًا يُذكر. فقط، كان كثيبًا هائلًا من الرمال قد أتى على خط السكة الحديد لمسافة عشرات الأمتار، وكأن أحدهم قد رفعه من مكانه السابق إلى جوار الخط الحديديّ ثم وضعه فوق القضبان بحرص شديد كي لا تتبعثر منه ذرة رمال واحدة بعيدًا عن مكانها. كان القطار مدفونًا بالكامل تحت ذلك الكثيب، وظل كذلك حتى أرسل المسؤولين، الذي كانوا في الموقع، رسالة طويلة يفصّلون فيها كل ما رأوه وكل النتائج التي يظنون أنها قد تترتب على تلك الحادثة.

كان ذلك آخر عهد الشركة الأجنبية بخط السكة الحديد وقطارها الصغير الذي أنشأته خصيصًا للبحث عن البترول في مناطق الواحات، فلمَّا تفجَّر الماء بدلًا من البترول أُسقط في يدها، فضيِّقت نطاق البحث إلى مناطق محددة استمرت في العمل عليها لكن دون جدوى، إلى أن جاء يوم العاصفة فكان القشة التي قصمت ظهر البعير. باعت الشركة كل آلاتها ومستلزمات عملها، بما في ذلك الخط الحديديّ وكل ما يمت له بصلة، إلى الحكومة الوطنية التي أرسلت بدورها معدات ثقيلة لرفع الرمال عن القطار. لكن السيارات الجبَّارة لم تستطع الوصول بكل تلك المعدات الثقيلة التي كانت تحملها إلى جثمان القطار، بل إنها لم

تستطع قطع نصف المسافة حتى. لم يكن هناك بُد من أن تمر السيارات عبر دروب ومدقَّات في الصحراء كانت مخصصة أصلًا لسير القوافل مما حدا بالحكومة أن تترك القطار مدفونًا، مسلمة أمره للطبيعة التي ما خيَّبت ظن أبنائها من قبل.

بعد مرور سنة كاملة من وقوع الحادثة، أرسلت الحكومة وفدًا إلى وادي الرفوف، حيث عُثر على القطار واقفًا في زهو وخيلاء وسط عدد لا يُحصى من الكثبان. وُجدَ في مكانه الذي تعطَّل فيه، بعد أن تجاوزته الرمال المتحركة، متخطية القضبان إلى الناحية الأخرى. بذلك خسر أهل الواحات وسيلة مواصلات كانت بالنسبة إليهم، في ذلك الوقت، معجزة من معجزات الزمن. سُحب القطار، بعد ذلك، إلى الواحات وظل هناك حتى تناثرت أشلاؤه ولم يتبق منه سوى الهيكل المعدنيّ الخارجيّ ليظلّ بذلك شاهدًا على حقبة من الزمن، ربما لم يعد يتذكرها أحد.

طارق فراج

من مواليد قرية عين القضا، واحة الداخلة، محافظة الوادي الجديد.

تخرج في كلية الآداب، جامعة عين شمس ١٩٩٢. صدر له:

الرواية:

-الشقوق، طبعة محدودة، سلسلة إبداعات الداخلة ٢٠٠٣

-باب للخروج، مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم بالإمارات وشركة المطبوعات للتوزيع والنشر- لبنان٢٠١٠ م

-الهبوط لأسفل ببطء، دار كيان للنشر والتوزيع بالقاهرة، بدعم من الصندوق العربي للثقافة والفنون- آفاق ٢٠١٢

-مليحة، دار الأدهم للنشر والتوزيع، القاهرة ٢٠١٣م

-رمال سوداء، الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠١٩

-الهبوط لأسفل ببطء، طبعة ثانية، دار الأدهم للنشر والتوزيع، القاهرة ٢٠٢١.

الشعر:

-صحراء العابرين، الهيئة العامة لقصور الثقافة، تجليات أدبية ٢٠١٢م

دراسات شعبية:

-لمحات من الأمثال الشعبية في الواحات، سلسلة الدراسات الشعبية، الهيئة العامة لقصور الثقافة ٢٠١٨

الترجمة:

-متحف الرواية الأبدية، ماسيدونيو فرنانديز، دار خطوط وظلال، الأردن ٢٠٢١م.

-من نحن وكيف وصلنا هنا: الحمض النووي القديم والعلم الجديد لماضي البشرية، كتاب في علم الأنثروبولوجيا من تأليف: "ديفيد رَايْك"، إصدارات المركز القومي للترجمة ٢٠٢١م.

-أخبار العالم، بوليت جايلز، دار عصير الكتب للنشر والتوزيع، القاهرة ٢٠٢١م.

-العقل التاريخي، خوسيه أورتيجا إي جاسيت، دار ترياق للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية ٢٠٢٢م

-العالم كما يبدو؛ مقالات في فن الفوتوغرافيا، دار خطوط وظلال - الأردن ٢٠٢٢